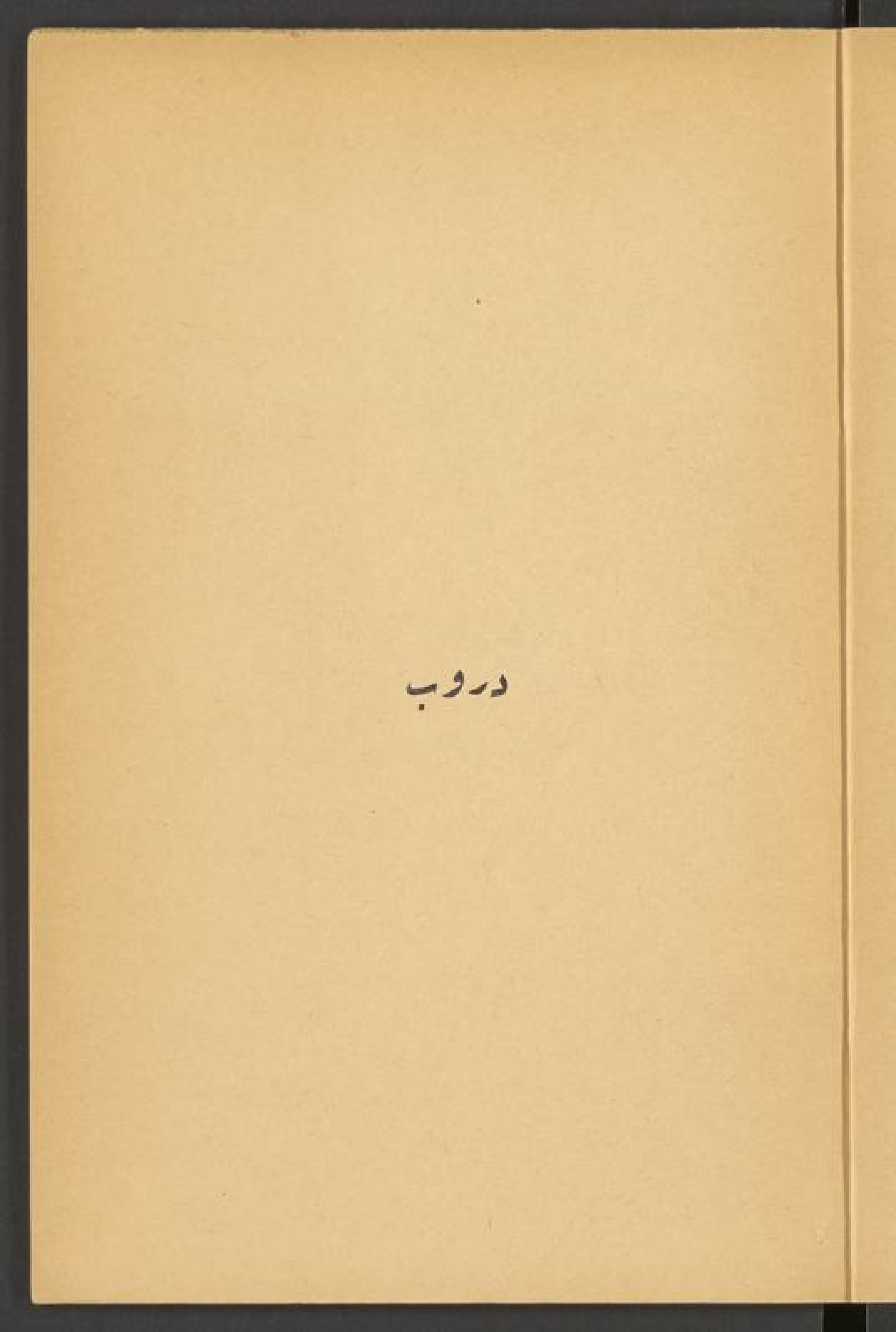
ميخائيل نعيمه

دروب

دار العلم للملايين
بيروت

DATE DUE



دروب

الطبعة الاولى

بيروت ، تشرين الثاني ١٩٥٤

ميخائيل نعيمه



دار العلم للملايين

دُرُوبُ الحَيَاة

يعروني ذهول ، وأيّ ذهول ، كلما فكّرت بالدروب التي تسلكها الحياة في داخلي وفي الاكوان من حواليّ . وابدأ اول ما ابدأ بجسدي ، وهو ما بان مني لناظريّ وانظار غيري من الكائنات الحيـة في الارض . فيدهشني من هـذا الهيكل العجيب انه شبكة هائلة ومحكمة الصنع من الدروب المتواصلة ، المتقاطعة التي لا تنفك مكتظة بسالكيها في كل لحظة من وجودي . فلكل نسمة هـواء انتشقها ، ولكل قطرة ماء اشربها ، ولكل لقمة طعـام ابتلعها دروب الى جسدي وفيه ومنه . واما تلك الكريات التي منها يتألف دمي ، سواء احمرها وابيضها ، فلا تسل عن الدروب التي تسلكها في داخلي من أم رأسي وحتى أخمصي .

للبرد في جسدي دروب ، وللحرارة دروب . وكذلك للمرض والعافية ، وللتعب والراحة ، وللنوم واليقظة ، وللحزن والفرح ، وللألم واللذة ، وللسخط والرضى ، والقلق والطمأنينة ، ولكل فكرة وشهوة ، وكل حركة وسكنة من حركاتي وسكناتي . وهل عيناي واذناي ويداي وانفي

وفي غير دروب يسلكها العالم الخارجي الى داخلي فتنطبع في ذهني اشكاله وألوانه ، وأصواته وملامسه ، وروائحه وطعمه ؟ فاذا بي استأنس ببعضها ، وانفر من بعضها .

ومثلما للعالم الخارجي دروب يسلكها الى داخلي ، كذلك لعالمي الداخلي دروب يسلكها الى الخارج . فانا ما فكرت فكرة الا كانت لي درباً الى إنسان من الناس ، او كائن من الكائنات التي تملأ الفضاء . ولا اشتهيت شهوة الا كانت لي عبارة الى حيّ من الاحياء او شيء من الاشياء . ولا نطقت بكلمة او سطرت كلمة الا كانت لي طريقاً الى اذن من الآذان ، او عقل من العقول ، او قلب من القلوب . فلا حصر للدروب التي اسلكها في كل لمحة من حياتي الى العالم الخارجي من حولي ، ولا للدروب التي يسلكها ذلك العالم اليّ ، حتى وان كنت في حالة هدوء تامّ ، وكنت مغمض العينين ، مسطوم الاذنين ، مكبل اليدين والرجلين ، ومعقول اللسان . فما دام في عروقي دم يجري دمتُ في اتصال مستمرّ مع العالم الخارجي . فلا عزلة لي عن العالم ولا للعالم عني .

واما الدروب التي سلكتها وأسلكها منذ ان كنت ، والتي سلكها ويسلكها غيري من الناس منذ ان كانوا ، ثم الدروب التي تسلكها الحشرات والزحافات والدبابات بانواعها ، والدروب التي تسلكها الاسماك في البحار ، والطيور في الهواء ، والاجرام السماوية في الفضاء ، والدروب

التي تسلكها المياه والابخرة في جوف الارض ، والجداول والانهار على سطحها ، والدروب التي تسلكها العواصف والاعاصير ، والبروق والرعود ، والزلازل والبراكين ، والحروب والاوبئة ـ امّا هذه الدروب كلها فمنذا يستطيع حصرها ، أو من ذا يستطيع ان يتتبع واحداً منها من أوّله الى آخره ؟ انها تلتقي وتفترق ، وتتصل وتنفصل بغير انقطاع . وليس من يدري كيف تلتقي وتفترق ، وكيف تتصل وتنفصل ، ولماذا . فكأنها درب واحد ذو شعابٍ بغير عدّ تتفرع منه لتعود اليه على حدّ ما تتفرع الجداول والسواقي والانهار من البحر لتعود فتجري اليه وتنصبّ فيه .

وأنت لو تأملت الدروب التي يسلكها الاحياء لوجدتها جميعها تؤدي الى غاية واحدة . وتلك الغاية هي البقاء . فما سلك حي من الاحياء درباً من الدروب سعياً وراء الموت ، بل طلباً للحياة . أما رأيت عنكبوتاً تنسج من لعابها شبكة عجيبة الصنع والهندسة ؟ ان كل خيط من خيوط تلك الشبكة هو دربٌ للعنكبوت الى الفريسة التي تستعين بها على الحياة . وقطّ ما حاكت عنكبوت شبكتها لتصطاد بها الموت لنفسها .

كذلك قل في كلّ ما دبّ على الارض وهبّ في الهواء وسبح في البحار من كائنات حية . فدروبها ، مهما تنوعت ، هي دروب تسلكها الى الحياة لا الى الموت . فالموت ما كان يوماً غايةً لمخلوق ، ولا دافعاً يدفعه على الحركة . في

حين ان حبّ البقاء ، ولذة التمتع بالوجود – على مـا يكتنفها من مخاطر – والاستماتة في الدفاع عنها كانت وما برحت الدافع الاول والاخير على الحركة وعلى تسييرها في دروب ودروب .

وانت لو تأملت العناكب البشرية لوجدتها ، هي كذلك ، تنسج شباكاً من الدروب العجيبة الصنع والهندسة لتصطاد بها البقاء ولذة البقاء . فالمدن المكتظة بالمساكن والمتاجر والمعاهد والمعامل والمعابد ليست سوى شباكٍ لاصطياد العيش وملذاته . وكذلك المزارع والدساكر بحقولها وكرومها وبساتينها . وهذه الاختراعات والاكتشافات التي تنهلّ علينا في الزمان الاخير انهلال المطر من السحاب – أليست هي كذلك شباكاً نصطاد بها الحياة ولذة الحياة ؟ ولو انّ اي حيّ من الاحياء كان على يقين من ان درباً يسلكه سيؤدي به الى الموت لما سلكه ، إذ ان من طبيعة كل حيّ ان يهرب من الموت . فكيف يمشي اليه ويجعله هدفاً لطريقه ؟ ذلك أمر منافٍ لطبيعة الاحياء .

ولكن دروب الاحياء كافةً – ودروب غير الاحياء – تنتهي ابداً الى التفكك والتبعثر والموت . أنقول اذن ان غاية الحياة من الدروب التي تسير عليها هي الوصول الى الموت ؟ أم نقول كما يقول البعض ، ان الحياة مجرّدة عن كل غاية ، فهي تعمل ما تعمل عن غير وعي ولدونما غاية ؟

لو كانت الحياة بغير وعي لما كانت لاي حي هذه

الرغبة الحادة في البقاء برغم ما فيه من عناء وشقاء ، ومن صراع وصداع . ولو كانت الحياة بغير غاية لما كانت هذه الشبكة الهائلة من الدروب التي تسلكها الكائنات ، عاقلها وغير عاقلها ، ومتحركها وجامدها . والدرب – ايّ درب – يعني مدىً بين نقطتين . اما الاولى فالدافع على السير . واما الثانية فالغاية منه . ففي كل درب ، ووراء كل درب غاية من الغايات . والكون كما رأيت ، شبكة هائلة من الدروب . وإذن فهو شبكة هائلة من الغايات كذلك . فكيف يكون بغير غاية ؟

لا ، ليست الحياة بغير وعي وبغير غاية . بل هي الوعي كل الوعي والغاية كل الغاية . ووعيها ظاهر في هذه الدروب التي ابتدعتها ثم سيّرت عليها ابناءها . وغايتها سافرة في جعلها لكل حي من الاحياء غاية . وهي غاية البقاء والاستمتاع به صافياً ، كاملاً ، وبغير نهاية .

اما ان دروب الاحياء وغير الاحياء تنتهي الى الموت والتفكك فليس في ذلك ما يعني ان غاية الحياة الموت . اذ لو كان الموت الغاية التي تسعى اليها الحياة ، ثم كان الموت تلاشياً واضمحلالاً كما يتوهم اكثر الناس ، لآن للحياة ان تتلاشى وتضمحل من زمان . ولكنها ابداً تتجدد بالموت . ولأنها تتجدد بالموت ، فالموت ليس النهاية التي نتوهم . بل هو ، درب من دروب الحياة .

من امثالنا العامية المثل القائل : « كل الدروب يؤدي

الى الطاحون » . والطاحون ، كما نعرفها ، هي المكان الذي فيه يتحوّل القمح دقيقاً صالحاً لصنع الخبز . والخبز هو عصب الحياة . واذن فلا بدّ لكل بيتٍ في كل دسكرة او مدينة من درب تصله بالطاحون ليبقى ساكنوه على قيد الحياة . وهكذا تصبح الطاحون النقطة التي اليها تنتهي وفيها تلتقي جميع دروب الناس .

ذلك هو المعنى الواقعي للمثل . ولا بأس لو نحن فهمناه على وجه مجازي فقلنا ان المقصود بالطاحون هو الموت . واذ ذاك فالموت الذي كل الدروب تؤدي اليه هو الطاحون التي نُطحن فيها لنتحول من شيء صالح الى شيء اصلح - لا لنغدو لا شيء . واذ ذاك فالموت ، كما سبق وقلت ، هو درب من دروب الحياة لا نهاية الحياة . وحاشا للحياة التي لا نعرف لها بداية ان تقف عند نهاية ، فدروبها دروب تجدّدٍ وبقاء لا دروب تلاشٍ وفناء .

عَالمٌ يشكُو

يشكو الناس بعضهم بعضاً بغير انقطاع . فالمحكوم يشكو حاكمه ، والعامل صاحب عمله ، والتلميذ معلمه ، والولد والديه ، والزوجة زوجها ، والمستأجر المؤجر ، والشاري البائع ، والمتدين رجل الدين . والعكس بالعكس . وهكذا قل في كل علاقة بين إنسان وانسان ، أو بين مجموعة واخرى من الناس . فالشكاوى تتعالى ابداً من الطرفين في كلّ طرفة عين . فكأنها القرار الابديّ الذي منه تنطلق واليه ترتد انشودة الحياة البشرية على الارض .

واذا اضفت الى ذلك شكوى الناس من الطبيعة والقوى العاملة فيها ومن ورائها كالزلازل والاعاصير ، والجراثيم والحشرات ، ، وانحباس الامطار والفيضانات ، والحر والقر ، والضواري والكواسر ، وجميع اصناف البلايا الجسدية والروحية ، ثم انقطاع حبل الحياة بالموت ، لادركت الى اي حدّ تهيمن الشكوى على حياة اهل الارض .

ولا عجب ، فالشكوى من طبيعة كل حي . فما عوى كلب الا تشكياً من عصاً او جوع ، او من عدوٍ مداهم ، او من فراق صاحب عزيز كريم . ولا ثغت شاة

الا تشكياً من بُعد رضيعها عنهـــا او من حبسها عن المرعى والمنهل ، او من انقطاعها عن صويحباتها في القطيع . ولا ناحت حمامة الا كان نوحهـــا شكوى من فراق او شوقاً الى تلاق .

والشكوى تكون صارخة احياناً ، واحيانـاً صامتة . فالتعب ، مثلاً ، هو الشكوى الصامتة ترفعها العضـــلات المكدودة الى الجسد بأسره طالبة اليه الكف عن العمل . والحزن شكوى صامتة يبثّها القلب الحـزين في كل ناحية لعل باعث الاحزان يريحه من احزانه . وكذلك الصلاة صارخة كانت ام صامتة . فما هي ، حتى في اسمى معانيها غير شكوى العابد الى معبوده من حال هو فيها ، وغـير ابتغائه حالاً خيراً منها . وهكذا قل في الخوف والملـــل والغضب والبغض والحقد والجشع والنميمـة وكل ضروب النقد وما اليها . فهذه كلها شكاوى من امور نتبرم بهـا ونرجو التخلص الى افضل منها .

وفي اعتقادي ان الطبيعة التي لا تعمل ايّ عملٍ اعتباطاً وارتجالاً ما اباحت الشكوى لكلّ حيّ الا لتحمله عـلى السعي الى الخلاص مما يشكوه . ولذلك تراها قد زودت الاحياء بشتى الحيل للتهرب مما يحملهم عـــلى التشكي . فسلحت الحيوان بالغريزة . وسلحت الانسان علاوة عـلى الغريزة بالعقل والارادة والخيال والضمير وبقوة التعبير عن كل ما تثيره فيه عوامل الحيـــاة من احاسيس وافـكار

وتخيلات . فشكواه اذ ذاك من اي شيء ، او اي حال هي في الواقع شكوى من ضعف عقله وارادته وخياله وضميره . او قل من جهله لكيفية استعمال تلك القوى الهائلة التي ما زودته بها الحياة الا ليتقن استعمالها . فلا تستعصي عليه عقدة ، ولا ترتفع له شكوى .

اذن فالشكوى ، مهما يكن نوعها ، هي اعتراف علني بضعف الشاكي وجهله تجاه ما يشكوه ، وباستسلامه الباطني للانخذال والقنوط.. ولو انه كانت له الثقة بالتغلب على ما يشكوه ، ولو في المستقبل البعيد ، لما شكا . الا ان معظم الناس كالتلميذ الكسول تعطيه قضية حسابية بسيطة فلا يلبث ان يعلن انها غير قابلة للحلّ . ثم يمضي يشكو معلمه لانه يكلفه حلّ قضايا تستعصي على الحل . فما ابعدهم عن الذين جاؤونا بعجائب المدنية الحاضرة . فاقتنصوا من البرق لظاه وجعلوه نوراً في مساكننا ، وطاقة في معاملنا . والذين مدّدوا أبصارنا واسماعنا فبتنا نرى ما في الاعالي والاعماق ، ونسمع ما في طيّات الاثير بين مشارق الارض ومغاربها . والذين فلقوا الذرة وراحوا يمنوننا بسياحات الى القمر وغيره من السيارات الدائرة في فلك الشمس . اولئك ما شكوا العقبات التي اعترضتهم في سبيلهم الى الغاية . لانهم كانوا واثقين من مقدرتهم على التغلب عليها والظفر الاكيد في النهاية .

لقد كان من شأن الانسان الذي نال ما نال من الفوز في

حربه مع المجهول حتى اليوم ان تصبح له ثقة مطلقة بمقدرته على حلّ جميع القضايا التي ما برحت تجابهه في حياته مهما بلغت من الخطورة والتعقيد . فلا يشكو شيئاً ولا يتبرم بشيء – حتى ولا بالموت . الا ان السواد الساحق من الناس تعوزهم تلك الثقة . ولذلك لا ينفكون يشكون ويتبرمون . وقد ألفوا الشكوى الى حدّ انك لو انتزعتها منهم لكنت كمن ينتزع منهم الحياة . فحيثما اجتمع اثنان او اكثر انبروا في الحال يتشاكون ويتذمرون ويتأففون . وهم في الغالب يتخذون من الطقس نقطة انطلاق ثم يتدرجون الى الغلاء او الكساد ، والى الفساد في السياسة ، والفوضى في الاخلاق . ويمرون بالدين ورجال الدين ، وبالمدارس والمدرسين ، مستخلصين من كل ذلك ان الحياة باتت عبئاً لا يطاق . وينتهون الى معارفهم فيغتابون وينمّون ملء اشداقهم . ويفترقون وليس بينهم واحد يقر امام نفسه بان الضعف والفساد والفوضى التي يشكوها في العالم هي ، في الواقع ، ضعفه وفوضاه . فحري به ان يشكو نفسه قبل ان يشكو الاخرين . ولو انه كان براءً منها لما شكاها.

اما ابتُليتَ ولو مرة في حياتك بجماعة من النـــاس يقتلون الساعة تلو الساعة في التشكي من الناس ، ومن الطبيعة ، ومن ربّ الطبيعة ؟ أما احسست نفسك كالمصاب بالجَرَب ، او كمن اباح جسده لجيوش جرارة من القمل والبقّ والبراغيث ؟ اما تمنيت لو تهرب من اولئك الناس الى حيث تلقى بشراً

يفكرون ولا يشكون ، ويعملون ولا يتذمرون ، ويسيرون في طريقهم ولا يتأففون ؟

انما الشكوى ضعف لا يليق بالانسان الواثق من نفسه ، والمؤمن بمقدرته على الانتفاع الى اقصى حدٍ بما وهبته الحياة من قوة العقل والارادة والخيال والوجدان ـ تلك الانوار الكاشفة التي لو احسن استعمالها ، ثم صوّبها على الظلام من حوله ، مهما اشتدّ ، لبدّده . فما نفعه من الشكوى ما دام لا يفعل شيئاً في سبيل التغلب على ما يشكو منه ؟ واذا هو انصب بكل قواه على ذلك العقبات التي في طريقه ، وكان له الايمان بانه متغلب عليها في النهاية ، فأي مبرر اذ ذاك لاي شكوى ؟

يقيني ان كثرة التشكي تشل عزم المتشكي فتقعده عن الانكباب بكل قواه على التخلص مما يشكو . وانه لمن المؤسف حقاً ان نرى شرقنا العربي مصاباً بداء التشكي الى حدّ قلّما بلغه اي قطر سواه من اقطار الارض . فغناؤه ـ حتى الحماسي منه ـ شكوى . وصلاته شكوى . وسياسته شكوى . وادبه شكوى . وتجارته شكوى . وافراحه شكوى . فكيف بأحزانه ؟ ثم كيف بمآتمه التي لا يدانيها في الارض شيء تفجعاً وولولة وعويلاً ؟ إنها الانسحاق بعينه . بل انها الكفر بالحياة الذي ما بعده كفر .

ما اجمل الصمت عند المصيبة ! واجمل منه النطق الذي يستخفّ بالمصيبة . واجمل من الاثنين الايمان بان لا مصائب

في الكون بل هنالك احداث تجتذبها الينا عن وعي منا وعن غير وعي . فتحجب حقيقتنا عنا الى حين ولا تمحوها كما تحجب الغمامة الشمس الى حين ولا تطفئها . وهذه الاحداث هي بالدرس والتأمل احرى منها بالتبرم والشكوى . فمن فهم ما تنطوي عليه من دروس وعِبَر قهرها بالفهم ، واتخذ منها سلاحاً لقهر أحداث اشدّ وطأة منها . ومن لم يفهمها حارَبها بالشكوى فكان المقهورَ ابداً وكانت القاهرة .

هنالك قوم يشكون ولا يحكّون ظفراً بظفر للخلاص مما يشكون . اولئك هم النعّابون والهدامون .

وقوم يشكون ويحاولون التخلص مما يشكون اولئك هم التائهون المؤملون .

وقوم لا يشكون ، ولكنهم ابداً بفهم وجدّ يعملون . اولئك هم الهداة والبنّاؤون .

الشَبابُ ثروة وَثورة

كتبَتْ إليّ صحيفة عراقية تطلب كلمة توجيهٍ مني الى الشباب العربي . فأجبتها بما يلي :

« ليس الشباب في حاجة الى من يوجّهه . فالقوى الهائلة التي يزخر بها كيانه هي الكفيلة بتوجيهه في السبيل المعدّ له . وإنما حاجة الشباب الى من يحميه من موجهيه الذين يحاولون ابداً ان يكمّموا فاه ، ويكبّلوا يديه ورجليه ، ويسكبوا الماء البارد على الحماسة المتأججة في صدره ، ويزرعوا الذعر والخنوع في فكره وقلبه . اولئك ، في الغالب ، هم رجال السياسة ، ورجال الدين ، والآباء والأمهات ، والمعلمون والمعلمات الذين يعيشون في قلق دائم من ثورة الشباب على ما رثّ من تقاليدهم ، وما بلي من اساليبهم ، وما تعفّن من معتقداتهم . ولذلك لا ينفكون يقيمون السدود والحواجز في وجه تفتّح الشباب وانطلاقه . وهم إذ يفعلون ذلك لا يدركون الى أي حدّ يجرمون بحق انفسهم وحق الشباب .

فمثلما لا خير في ارضٍ ربيعها خريف او شتاء ، كذلك لا خير في امّة شبابها كهولة أو شيخوخة . وإنه لمن الاثم

الذي لا يُغتفر ان نمسك على الشباب حرية الافصاح عما في كيـــانه من قوىً تتحفز للوثوب ، فنجعله يدبّ حيث يستطيع ان يطير ، ونجعله يتردد حيث يطلب الانطلاق. فالشباب ربيعنا ، ومن حقنـــا ان ننعم به متفجراً من اعماقنا كما ننعم بالربيع متفجراً من احشاء الأرض ، فلا نحوّل ورده قطرباً ، وياسمينه عوسجاً ، وبلابله غرباناً ، ونسوره بوماً . وذلك ما نفعله بالتمام عندما نحرم الشباب حرية التعبير عن نفسه إن بالقول وإن بالفعل ؛ ثم نحصره في قوالب صلبةٍ ، قاسية لا تلبث ان تضيق بـه فتتشقق وتتطـــاير شظايا تدميه وتدمينا بالسواء . وقد تهلكـه وتهلكنا . »

تلك هي الكلمة التي بعثت بها الى الصحيفة العراقية . وهي ، كما ترى ، مقتضبة كل الاقتضاب . تنقر بـــاب الموضوع ولا تلجه . وإن هي ولجته فلتتناوله بلمحةٍ خاطفة لا تنقع غليل الشباب ولا غليلي . فمن حق الشباب علي ، وعلينا اجمعين ، إذا نحن تحدثنا عنه ان نتحدث بخشوع العابد ورهبة الواقف امام سر عظيم . وأي سر اعظم من سر التجدد الأبدي الصاعد بنا جيلاً بعد جيل ، وعـــلى مدى الدهر ، مـــن الحيوان فينا الى الانسان ، ومن الانسان الى ما فوق الانسان - الى الله ؟ ذلك هو التجدد الذي لولاه لكنا ما نزال حتى اليوم في المغاور والكهوف ، ولما كانت لنا هذه المدنيات والحضارات نشيدها ثم نهدمها ،

ثم نشيدها ثم نهدمها ، الى ان نبلغ بها الغاية التي من اجلها وُجدنا واليها نسعى في كل لحظة من وجودنا ، عن وعيٍ منا وعن غير وعي - واعني معرفة كل شيء والقدرة على كل شيء . ونحن مدينون بهذا التجدد للشباب اولاً وآخراً .

وانا إذا أعزو شرف التجدد ومجده وجماله الى الشباب دون غيره من ادوار الحياة ، فلست اقصد ان اقلل من شأن الطفولة والصبا ، والكهولة والشيخوخة في بنيان الحياة البشرية . ولكن شأن هذه دون شأن الشباب بكثير . لان الشباب هو المتن ، وتلك مقدماته وحواشيه وخواتيمه . هو النور وهي الظل . هو الدور الذي فيه تستكمل الحياة البشرية جميع معدّاتها ومقوّماتها من ذخائر جسدانية وروحانية . فاللحم والدم يزخران بالحرارة والحركة . والعقل في ثورة على كل حال مجهول . والخيال نشيط ووثاب . والقلب في عطش قتال وجوع مضنك الى الحب والعدل والحرية . والارادة صلبة ، قحّامة . والايمان بالنفس وقدرتها على مغالبة الصعاب قوي ، وطيد .

لعل اكبر عقبة في طريق الناس الى التجدد والتقدم هي انهم يألفون على التمادي نمطاً من العيش الى حد أن يعتبروه غير قابل للتغيير والتحسين . بل الى حد ان يعتبروا كل تغيير فيه خروجاً على النظام وتصدعاً في بنيان حياتهم ، وبالتالي خطراً جسيماً على راحتهم وبقائهم . فحالهم من

هذا القبيل هي حال العصفور يألف قفصه ، والبهيمة زريبتها ، والنحلة خليتها . ذلك هو شأن الجماهير في كل زمان ومكان . ولولا قلة من الناس تتطلع ابداً الى ابعد من عيدان أقفاصها ، وسياجات زرائبها ، وتخاريب خلاياها لما خطت البشرية خطوة واحدة الى الامام .

تلك القلة هي ، في الغالب ، من صفوف الشباب الذي يطل على الحياة بعينين ما اختطف بريقهما الملل من تكرار المشاهد ، وبفكر ما كبّلته التقاليد ، وبعزيمة ما أنهكتها المعارك ولا شلها الخوف من الفشل والهزيمة .

إن ثروة الشباب هي في صفاء بصره وبصيرته ، وفي مضاء عزيمته ، وفي ثورته على الركود والجمود ، وعلى القيود والسدود . وهذه الصفات هي التي تميز الشباب من غير الشباب ، والتي لولاها لما جرى مركب في بحر ، ولا دار دولاب في بر ، ولا اشتعلت نارٌ في دار ، ولا خاطت إبرة ثوباً ، ولا شيد حجر فوق حجر ، ولا كان حرف وكان كتاب ، ولا انطلق لنا جناح في الفضاء ، ولا أضاء لنا سراج في ظلمة ، ولا امتد لنا صوت عبر القارات والمحيطات ، ولا كان لنا اي علم او فن او دين او نظام ، ولا اي شيء من الاشياء التي بها نعيش ومنها تألفت مدنياتنا الغابرة وتتألف الحاضرة ، وستتألف التي بعدها .

وصفات الشباب هذه لا يندر ان تجدها في بعض

الكهول والشيوخ الذين كان العمر واثقاله أضعف من ان تسدل الغشاوات الكثيفة على أبصارهم وبصائرهم . فما ألفوا قيودهم ، ولا انكمشوا ضمن حدودهم وسدودهم ، ولا تخلوا عن طموحهم في تغيير حال هم فيها الى حال افضل منها . اولئك هم الكهول والشيوخ الذين ما برحوا شباناً بأفكارهم وقلوبهم . فهم بركة وايّ بركة للناس اجمعين . إلا انهم ، وإن قاموا بقسط من تجديد البشرية ، فالقسط الاكبر يقوم به الشباب من غير شك .

ولان القديم يكتسب شيئاً من الروعة والقدسية لمجرّد قدمه ، ولان المألوف يتحصن في قلوب الناس وافكارهم لمجرد انه مألوف ، ولا يكلّف الناس كبير عناء في مسايرته على حد قول المثل العامي : « نحسٌ تعرفه خير من جيد تتعرف عليه » - لذلك كان التجدد - ايّ تجدد - ضرباً من الثورة . ولذلك كانت الثورة في دم الشباب الذي يأبى إلا التجدد . ولولا تصلّب القديم وتعنت المألوف لما كانت الثورات من اي نوع كان . ولكن القديم يرسل جذوره بعيداً في تربة الحياة البشرية فيتعذر اقتلاعه إلا بمشقة بالغة . والمألوف يقبض على قلوب الناس وافكارهم ولا قبضة الاخطبوط ، فيصعب التخلص منه بغير الكثير من الالم .

لو ان الناس كانوا أكثر اتعاظاً بدروس ماضيهم ، وأعمق تفهماً لواقع حياتهم لجعلوا قديمهم ومألوفهم من

المرونة والطواعية لمتطلبات التطور بحيث يتفادون الثورات وجميع ما يرافقها من عنف ومن آلام جسدانية وروحية هائلة . إلا انهم بماضيهم لا يتعظون ، ولواقع حياتهم لا يفهمون ، وبعيون حسيرة وقلوب واجمـة الى مستقبلهم يتطلعون . ولذلك تراهم يتكاتفون على كبح جماح شبابهم ، وعلى إقامة الحـدود والسدود في وجه قوى التجدد التي تجيش في داخله وتتحفز للانطلاق . أمـا النتيجة المحتمة فالثورة التي قد تكون دموية وقد لا تكون ، ولكنها في الحالتين تسبب آلاماً على قدر ما تلاقي من معاندة .

أي دينٍ قام في الأرض ولم يكن ثورة على دين قبله؟ أي علم ترعرع بين الناس ولم يكن ثورة على جهلٍ ألفه الناس فأحبوه واستسلموا له ؟ أي فن شق طريقه في دنيا الفنون من غير ان يشق اثلاماً من الكدر والامتعاض في قلوب الذين ألفوا غيره ومـا ألفوه ؟ كل اختراع ثورة ، كل اكتشاف ثورة ، كل فكرة جديدة ثورة ، كل زي جديد إن في اللباس ، وإن في المأكل والمشرب والمأوى ، وإن في اللغة والأدب ، وإن في الصناعة والتجارة ، او في الدراسة والعبادة ، او في التقاليد والنظم السائـدة ـ ثورة . وهذه الثورات هي التي بها تتجدد الحياة من يوم ليوم ، ومن جيل لجيل . والشباب هو الذي يرفع ألويتها ، ويمشي في طليعتها غير مبالٍ بما يقدمه في سبيلها من تضحيات غاليات .. فلا ماله ، ولا جماله ، حتى ولا دمه بأعز لديه

من الهدف الذي يسعى اليه ، ومـــن المثل الأعلى الذي اتخذه لنفسه رائداً وإماماً .

فما اجهلنا نحاول ان نخنق ثورات الشباب وهي ما تزال أجِنّة ! فلا يرتفع صوت الشباب ضد ظُلامة من مظالمنا ، او ضد تقليد من تقاليدنا ، او طقس من طقوسنا ، او عقيدة من عقائدنا ، او نمط من انماط معيشتنا حتى ننادي بالويل والثبور ، وتعترينا رجفة من سوء المصير . كذلك نادى الكتبة والفريسيون عندما طرقت مسامعهم كرازة المسيح . وكذلك نادى القرشيون عندما قام محمد بدعوته . وكذلك نادى اهل اثينا عندما راح سقراط ينشر افكاره في الناس . وكذلك نادى رجال الدين في الاجيال الوسطى عندما قال قائل ان الارض تدور . ولو شئت ان اعدد الامثلة التي قامت فيها قيامة المحافظين على كل مجدّد في الأرض لما انتهيت .

إلا ان ماكان جديداً في الامس اصبح اليوم قديماً . وبتنا نسمع اصواتاً تتعالى من هنا وهناك طالبةً تجديده . ونسمع مع هذه الاصوات أخرى تهدر وتزمجر مطالبة بابقاء القديم على قدمه . فهـــو من القداسة والكمال بحيث لا يمكن لأي انسان ان يطاله بقلم او بلسان . واني لأسألكم : أي المنطق هو منطق هؤلاء الغيارى على القديم ، والقائلين بقدسيته وعصمته ؟ وهل يرضون لو تعود بهم الحياة القهقرى الى حيث كان اسلافهم منذ آلاف الاجيال ؟ ام

تراهم يعتقدون ان ما لديهم من تقاليد وطقوس ومعتقدات هو غاية الغايات ونهاية النهايات فلا زيادة بعده لمستزيد ؟ وإذن فما شغلنا على الارض من الآن والى الابـــد إذا لم يكن لنا من امل في ان نجدّد ونتجدد ، وان نبلـغ من المعرفـــة والمقدرة والحرية ولو قيراطاً فـوق ما بلغناه حتى اليوم ؟

إننا نتوارث التقاليد والنظم والعوائد والعقائد جيـــلاً عن جيل . والتقاليد والنظم والعوائد والعقائد الموروثة من شأنها ان تتحجر وتتعفن وتنقلب تعصباً وكرهاً في فكر الوارث وقلبه ما لم يهضمها وجدانه ويجعلها دماً من دمه ولحماً من لحمه . وإذ ذاك فمن حقـــه ان يتناولها بالفحص والتمحيص ، وبالشك والتجريح حتى اذا استساغها تمسك بها . واذا لم يستسغها راح يفتش له عن اخرى يستسيغها . فالايمان بالله مثلاً – وبغير الله – لا يصـــح ان ينتقل بالوراثة كما ينتقل المال والمتاع والعقار . فهو عملية باطنية وصلة ذاتية بين المؤمن والمـــؤمَن بــــه . والشك باب الايمان . ومن حقنا ان نشك في ما ورثنـاه عن اسلافنا . ومن حق شبابنا ان يشك في ما ورثه عنا .

لذلك اقول إنه من العار علينا ان ننادي بالويل والثبور كلما تصدى شبابنا لعقيدة من عقائدنا ، او تقليـــد من تقاليدنا بكلمة او بحركة او بشكّ . وكان اجدى لنا الف ألف مرة ان نطلق له الحرية ثم ان نحاول اقناعه بدلاً من

ان نضع شكيمة في فمه او ان نحطم قلمه . فالحق في غنى عن دفاعنا اذا كنا على حق . واذا كنا علـــى ضلال فمرحباً بالشك منجياً من الضلال .

ونحن اليوم في دنيا العرب أحوج ما نكون الى شباب يجرؤ على ان يشك ، ثم يجرؤ على ان يعمل للخلاص من شكه . فالشك اذا طال أمسى شللاً . وشبابنا هو الثروة التي ابن منها ذهبنا الاسود والاصفر وكل ما تنتجه ارضنا من ثمار وحبوب وبقول ؟ هذه للنفاد والبـــوار ، وتلك للبقاء والازدهار . وحري بنا ان نستثمر هذه الثروة الى اقصى حد ، فنتاجر بها قبل ان نتاجر بالبترول ، وبالخام والشيت ، ونوليها من عنايتنا أضعاف أضعاف ما نوليـــه الدوالي في كرومنا ، والسنابل في حقولنا ، والاموال في مصارفنا ، والكراسي في مجالسنا . ولا نقضي عليها بمـــا نفرضه على الشباب من قيود ، وما نقيمه في وجهه من سدود ، بل نطلق للشباب حرية القول وحرية العمل إذا نحن شئنا ان ننعم بمواهبه وبركاته ، وان نتفادى غضباته وثوراته .

ولا يقولن قائل إن تلك الحرية قـــد تؤدي بنا الى الفوضى . فالفوضى هي ما نحن فيه . ولن يخرجنـــا منها الا الشباب المجدّد والمتجدّد . ويقيني ان ما في دم شبابنا من حرارة ، وما في عقله من اتزان ، وما في قلبه من إيمان بالعدل والنظام والاخاء والحرية لكفيل بان يقطع بنا شوطاً بعيداً نحو عالم ألطف جواً ، وافسح افقاً ، واعذب

صوتاً من عالم نعيش فيه الآن . فليس كالشباب خزانةٌ نأتمنها على آمالنا . وليس كالشباب مجدداً لشباب الحياة . وليس كالحرية غذاءٌ للشباب وحافزاً له على الخلق والابداع والسير بالقافلة الى الواحات المطمئنة والمراعي الخصبة .

المَلاذ الأوّل وَالأخير

يدأب الانسان في دنياه ليكفل لنفسه عيشاً رغيداً وعمراً مديداً . فلا ينفك يحتال على الطبيعة بكل ما أوتيه من قوى بدنية وعقلية لينعم بخيراتها ويدرأ ويلاتها . ولكن اتعابه ذاهبة ابداً أدراج الرياح . فلا عيشه يصفو من الكدر ، ولا عمره يمتد أبعد من سنوات معدودات . لئن شبع بطنه الى حين فقلبه في جوع دائم . ولئن تحصّن جسمه من الحرّ والقرّ والعواصف ففكره ابداً ريشة في مهب الريح . ولئن أمن غدر الوحش فليس يأمن غدر أخيه الانسان ، ولا غدر نفسه . وعلى الاجمال فراحته عبّارة من تعب الى تعب . وشبعه هدنة بين جوع وجوع ، وفرحه فترة انتقال من حزن ، الى حزن ، وصفوه هدأة بين كدر وكدر ، وطمأنينته همزة وصل بين قلق وقلق .

لكأني بالانسان في دنياه منخلٌ ، وبكل ما يجمعه من حطام وعلم وفنّ ، وكل ما يرتبه لنفسه من طقوس وأنظمة ، دقيقٌ في ذلك المنخل . فالدقيق باقٍ في المنخل ما دام المنخل في حالة هدوء واستقرار . إلا انك ما إن تهزه هزّة بعد هزة حتى يتساقط كل ما فيه من الدقيق

فلا يبقى غير النخالة . وإذ ذاك تعود فتملأه من جديد . وتعود تهزه . وهكذا دواليك .

والانسان ما دامت له الراحة والعافية وصفو البال دامت له المقدرة على الاستمتاع بما جنت يداه من خير ، وبما استنبطه فكره من اختراعات ، وابتدعه خياله من علوم وفنون ، وبما في الكون حواليه من بهجة وجمال ، وبما في قلبه وقلوب ذويه وأصحابه من محبة وصداقة ، وبما اكتسبه لنفسه من صيت أو جاه او سلطان . ولكنه سرعان ما يَفرغ من كل ما فيه ، إلاّ النُخالة ، حالما تهزّه يد الاقدار هزة عنيفة . وهذه الهزّة قد تكون خسارة مال او عقار ، وقد تكون نكسة سياسيّة او لوثة اجتماعية ، وقد تكون خيبةً في حبّ او فشلاً في مشروع ، وقد تكون إهانة من غريب او قريب ، وقد تكون موت حيوان عزيز او طفل حبيب ، الى اخر ما في جعبة الاقدار من سهام لا تنفك تُريشها على الانسان فتنغّص عليه عيشه . فكيف بذلك السهم اذا كان مرضاً عضالاً لا تنجح فيه رُقْيَة راقٍ ، ولا سحر ساحر ، ولا طبّ طبيب ؟

يحكى عن ابي حازم الأعرج انه دخل مرّة على هارون الرشيد فقال له الرشيد : عظني يا ابا حازم ، فقال : دونك والقرآن موعظة . ثم طلب الرشيد شربة ماء فقال له الأعرج : إذا انحبست عنك شربة الماء أتفديها

بملكك أم لا ؟ أجاب : نعم ، فقال : وإذا انحبست فيك ألا تفديها بملكك ؟ قال : نعم . فقال ابو حازم : إذن لا خير في ملك يباع بشربة وبولة .

انها لموعظة بليغة حقاً . ففي حضرة الوجع المؤدي الى الموت لا يجدي فتيلاً مال او سلطان ، ولا صيت عريض وجاه رفيع ، ولا علم واسع وفنّ متفوّق ، ولا الحصون ولا الجيوش ، ولا شيء مما يسعى اليه الانسان في دنياه وعبثاً يحاول ان يتحصّن به من الحزن والألم والموت . فذلك كله يمضي هباء في الفضاء عندما تقع الواقعة .

وأبلغ من حكاية ابي حازم مع الرشيد حكاية بوذا مع المرض والشيخوخة والموت . فمما يروى عنه انه شبّ في قصر والده وتزوّج وانجب غلاماً وهو لا يعرف شيئاً عن كل ما ينتاب الناس من اوجاع واوصاب . فقد كان والده الملك حريصاً على ان يقصي عن سمعه كل ما من شأنه ان يُدخل الكدر الى قلبه والشك الى فكره . وذات يوم أصرّ الشاب على الخروج من القصر في نزهة . فأمر الوالد بأن تزيّن مساكن المدينة بأبهى الزين ، وبأن تفرش شوارعها بالرياحين ، وبأن لا يخرج اليها غير الاصحّاء والاقوياء من رجال ونساء . وكان كما امر الملك . إلا ان الآلهة ابت إلا ان تعكر على الشاب نزهته . فما كاد ينطلق في مركبته البديعة حتى وقع بصره على رجل مطروح على الارض وقد ركبته القروح والدمامل حتى

بات مجرّد النظر اليه يجرح العين ويقزّز النفس . وكانت الآلهة هي التي وضعته هناك بحيث يراه بوذا وسائقه ولا يراه غيرهما . فما ان وقعت عين بوذا عليه حتى انقبض قلبه فسأل السائق :

« ما هذا ؟ »

فاجابه السائق انه رجل كان صحيحاً ثم ابتلي بهذا المرض . فقال بوذا : وهل هو وحده من بين كل الناس مصاب بهذا المرض ، ام ان باقي الناس - وانا في جملتهم - معرّضون لمثل مرضه ؟ فردّ عليه السائق ان كل الناس - وهو في جملتهم - معرّضون لذلك . عندئذٍ أمر بوذا حوذيه بالعودة الى القصر ، وقد طار الفرح من قلبه وحلّت محلّه كآبة لا تنفك تسأل : « كيف يفرح الناس ما داموا مهددين بالمرض ؟ » .

ولكن بوذا مالبث أن حاول النزهة ثانية وثالثة . فوقع في المرة الثانية على شيخ في منتهى الوهن والبشاعة . وفي المرة الثالثة على ميت يسيرون به الى المقبرة . وما كان يدري قبل ذلك ان الشباب ينتهي الى شيخوخة ، وان الحياة ختامها الموت . وعندما فهم من الحوذي انه وجميع الناس عرضة للشيخوخة وللموت عـــاد الى القصر وانطوى على نفسه . ثم ما طال ان هجر اباه وزوجه وطفله ، وانقطع زماناً عن العالم ولم يعد اليه إلاّ من بعد ان اهتدى الى حقيقة المرض والشيخوخة والموت ومن خَلفِها الحقيقة

الكبرى ـ حقيقة الحياة المؤدية الى الراحة الابدية ، وقد اسماها « النرفانا » . وهذه النرفانا عينها هي التي دعـاها المسيح « ملكوت الله » ودعاها محمد « الجنّة » .

لبس قصدي ان احدّثك عـن النرفانا وملكوت الله والجنة . ولكن قصدي ان القي في خلدك انّ لوجودك هدفاً يجدر بك ان تعرفه . وانّ المال والعـلم والفنّ والقوّة والجاه والشهرة وما اليها يستحيل ان تكون ذلك الهدف ما دامت قاصرة عن ان تردّ عنك غوائل المرض والشيخوخة والموت وما يسبقها ويرافقها من حزن وتحرّق وألم . وانك إن توفق الى اكتشاف هدفك بنفسك فحريّ بـك ان تتكل على الذين سبقوك الى اكتشافه . فلا بوذا ولا المسيح ولا محمد من الذين يليق بك ان تستخفّ بافكارهم وأقوالهم وأعمالهم ، او ان تشك مثقال ذرة في صدق نيّاتهم . ثمّ انك في خضمّ هذه التيارات الصاخبة التي تتقاذفك اليوم من كل جانب وفي كل صوب لفي امسّ الحاجة الى حقيقة تفزع اليها وتستأنس بها وتتخذها مـلاذاً لك في الملمّات . انك لفي حاجة الى هدف يتبدّل كلّ ما في الارض ولا يتبدل ، بل تزول الارض ولا يزول . وهذا الهدف لن تجده في غير الدين اذا أنت استطعت ان تستقيه من منابعه الصافية .

لست بجاهل ان كلمة « الدين » قد اتخذت على كرّ العصور الواناً غير مستحبة في نظر الكثير مـن الناس ،

وعلى الأخص في هذا الزمان . واللوم في ذلك ليس على الدين بل على الذين انحرفوا به عن اهدافه السامية ، فتمسكوا بقشوره ونبذوا اللباب ، ثم انتهوا بان جعلوه مجموعةً من الطقوس الجوفاء ، والصلوات التي تحرك اللسان دون القلب والشفاهَ دون الفكر والوجدان . مثلما جعلوه ركاماً من المشاحنات اللاهوتية ، وسيف تفرقة بين الانسان والانسان ، وبين الانسان والله . والدين الذي لا يغمر القلب بالمحبّة ، والفكر بالأيمان ، والروحَ بالاطمئنان ليس بالدين الذي يُرتجى للخلاص ويصلح ملاذاً من الشدائد والمحن والموت . ذلك هو الدين وقد عكر صفاءه جهلُ الشاربين منه على حدّ ما تعكر الابل المياه التي ترتوي منها اذ تغوص فيها الى الركب .

لئن استطاع الجهل ان يحجب نور الدين فلن يستطيع ان يبتلعه . فالشمس تحجبها الغمامة ولكنها لا تمحقها . ولئن عكر الاغبياء والادعياء مياه الدين فلن يعكروا منها غير ما انساب بعيداً عن المنبع . اما المنبع فلن تطاله اقذارهم واكدارهم . واذ ذاك فحذار ان تنكر الشمس لان غيمة حالت بينك وبينها . وحذار ان تحكم على الينبوع بالفساد لان الشاربين منه بعيداً عن مصبه قد لوّثوا مياهه . حذار ان تنفر من الدين لأن السواد الأعظم من المتدينين براء من الدين .

انما الدين هدف وطريق . امّا الهدف فالخلاص من

حياة تتحكم فيها الأمراض والأحزان والشيخوخة والموت الى حياة ليس فيها لهذه الآفات كلها ولاظل" سلطان . وأما الطريق فالايمان بان" في الكون قدرة مبدعة ، منظمة ، وان" نظامها يقضي على الانسان ، اذا هو شاء بلوغ الهدف ، أن يغالب ما فيه من غرائز تكبل خطاه في السير نحو الهدف ؛ وان" تلك القدرة قد سلحته بكل ما يمكّنه من الغلبة . ففي مستطاعه أن يقهر الشك باليقين ، والعنف باللطف ، والشهوة بالعفّة ، والجهل بالمعرفة ، والبغض بالمحبة . واذ ذاك فهو من الدين في لبّه ، والدين ملاذه الذي ما قبله ولا بعده من ملاذ .

الخيط الأبيض والخيط الأسود

إن تكن العين سراج الجسد ، فسراج النفس الضمير .

بالعين يميز الجسد الليل من النهار ، ويميز الاشياء من حيث أشكالها وألوانها وأبعادها ، ثم يميز ذاته من سائر الاشياء . وبالعين يستنير ليسلك سبيله في الارض . كذلك بالضمير تميز النفس ما بين الحلال والحرام ، والصلاح والطلاح ، والفضيلة والرذيلة ، وتميز نفسها من سائر النفوس . وبالضمير تستنير لتسلك سبيلها في دنيا الخير والشرّ . والانسان هو المخلوق الأوحد على الأرض الذي خصّته الحياة بنور الضمير علاوة على نور العين .

ومثلما يتفاوت الناس في صفاء البصر يتفاوتون في صفاء البصيرة . فالفرق بين الزّرباء والأعشى ، من حيث نقاوة البصر ، كالفرق ، من حيث نقاوة البصيرة ، بين من يحب قريبه محبته لنفسه ، وبين من يقول : « من بعدي الطوفان ». ولا عجب في ان تختلف مقاييس الخير والشر عند الناس ، وان تتفاوت درجات حسّهم بجمال الفضيلة وبشاعة الرذيلة ، باختلاف طبقاتهم واذواقهم ومداركهم ،

وبتفاوت الدرجات التي بلغوها في سلّم الرقي الفكري والروحي . وانما العجب كل العجب في التفاوت العظيم بين تقديرهم لاهمية العين الخارجية بالنسبة الى العين الباطنية . فهم يحرصون حرصاً بات مضرب المثل على حدقة العين التي بها يميّزون الخيط الابيض من الخيط الاسود ، في حين انهم لا يفتأون يذرّون الرماد والملح والبارود والكبريت في بؤبؤ العين التي بها يميزون الصدق من الكذب ، والطهارة من الدعارة ، والمحبة من البغضاء . ولهم في ذلك فنون وفنون . واليك بعض الامثلة :

في اخبار التوراة انّ نوحاً كان اول من غرس الكرمة وشرب من عصيرها فسكر . وقد بلغ به السكر حداً اختلّ معه ميزان عقله ، وأفلت زمام أعصابه من يده . فما بقي يدري ماذا يقول وماذا يفعل . وتعطل ضميره فلا هو يميز بين ما يليق برجل مثله وبين ما لا يليق ، ولا بين حقّ وباطل ، او بين صالح وطالح . لقد أصبح — على حدّ قول القدامى — لا في العير ولا في النفير . فلا هو يرجى لجلب خير ولا لدرء شرّ . لقد كان ينبض فكراً وايماناً وحركة فاذا به مشلول الفكر والايمان والحركة . تخاطبه فلا يسمع ، وإن سمع فلا يفهم ، فكأنهُ ميت وليس بميت . لقد انطرح في خيمته وهو لا يعي من حاله شيئاً . وكان ان انكشفت عورته ، فما تورّع أحد بنيه الثلاثة من النظر اليها . وبذلك جلب

عليه لعنة أبيه بُعيد ان أفاق الأخير من سكرته . وهي لعنة ما تزال تلاحق ذريته حتى اليوم .

قد يكون من الانصاف ان نتساهل مع نوح فنغتفر له صنيعه الشائن ، ونتنحل له عذراً من انه كان يجهل فعل الخمر اذا ما تناولها الشارب بكميات تذهب باللب . فما سبق له او لأحد من قبله ، ان تذوقها وعرف قدرتها العجيبة على العبث بجميع مقدرات الانسان والرجوع به الى حالة الحيوان ، بل الى احط من حالة الحيوان . اما الذين جاؤوا بعده فمن اين تُنتحل لهم الاعذار ، وقد عرفوا ما هي الخمر وكيف انها تذهب بالبصر وبالبصيرة على السواء ؟

قد يكون ان نوحاً تاب من معاقرة الخمرة من بعد أن خبر مفعولها . فليس في التوراة ما يشهد بعكس ذلك . اما ذريته فما قنعت بأن أخذت عنه سر الخمر ، بل راحت تفتن في صنعها حتى بات من المتعذر اليوم إحصاء كل أصناف الخمور التي يصنعها ويشربها أهل الارض . وما اكتفوا بالخمور يستعينون بها على قتل الانسان فيهم . بل انطلقوا يفتشون عما هو ادهى من الخمر واشد فتكاً . فاهتدوا الى الحشيش والمورفين والكوكايين وغيرها من المخدرات . فكأنهم يتبارون في استنباط الوسائل التي من شأنها ان تعطل ضمائرهم ، وتطفىء بصائرهم ، فتسلبهم قدرة التميز بين الخير والشر التي لولاها لما استحقوا لقب « إنسان » .

اذا ما ذكرت المسكرات والمخدرات في طليعة المعطلات

للضمير فليس لأنها الأهمّ ، بل لأنها أبرزها الى العين ، وأقربها الى التناول . فهناك معطلات لا تأتي الانسان من الخارج . فلا هي تُذاق ولا تُشمّ . ولكنها تُطهى في صميم القلب البشري . ولا يندر ان تفوق جميع المسكرات والمخدّرات تخريباً في العقل والضمير والارادة . وللتدليل على واحدة منها اعود بك ثانية الى التوراة ، الى فجر الحياة البشرية كما يصوّره كاتب سفر التكوين - الى حكاية قابيل وهابيل ولدَيْ آدم وحواء .

لقد كان قابيل يحرث الارض . وكان هابيل يربّي الغنم . وشاء الأخوان ذات يوم ان يقدّم كل منهما للربّ قرابين من نتاج عمله . وشاء الربّ ان يقبل تقدمة هابيل وأن يرفض تقدمة قابيل . فما كان من الاخير الا ان انقض على أخيه وارداه بطعنة . ولماذا ؟ لأن الحسد من الحظوة التي نالها أخوه عند الله أضرم في احشائه ناراً لاهبة ، فعطّل عين ضميره ، وزيّن له ان النار التي كانت تتأ كله لن يُطفىء اوارها إلا دم أخيه . فما كان يطيق لأخيه نعمةً ليست له . وإذن فلا بدّ من محو تلك النعمة بمحو الحياة التي حلّت عليها .

إن ما فعله الحسد بوجدان قابيل كان افظع بكثير مما فعلته الخمرة بوجدان نوح . فنوح لم يرتكب جريمة إلا ضد نفسه . في حين ان قابيل اقترف جريمةً ضدّ اخيه وجريمةً ضد نفسه . اما الأولى فجريمة القتل . واما الثانية

فجريمة الكذب ، فقد كان منه عندما جاءه الله يسأله عن اخيه ويطالبه بدمه ان انكر فعلته وأجاب الله بوقاحة متناهية : « وهل انا حارس لأخي ! » فاستحق بذلك لعنة الله . وما تدري أهو استحقها لجريمة القتل ام لجريمة الكذب . فلعله ، لو اقرّ بذنبه واستغفر الله لغفر الله له ذنبه . ولكنّ الحسد العارم في قلبه كان قد عطل عين وجدانه فما بقي يبصر وسيلة الى الخلاص من شرٍ وقع فيه الا باقتحامه شرّاً آخر .

منذ فجر التاريخ والحسد يذرّ رماده وملحه وبهاره وكبريته في عيون الناس الباطنية ، واذا بها لا تميز الخيط الأبيض من الخيط الاسود في نسيج الخير والشرّ الذي هو نسيج الحياة البشرية على الأرض . وكثيراً ما يصاب الحاسد بالعمى الروحيّ ؛ إلاّ اذا قُيّض له من ينزع الحسد من قلبه ويبيّن له ان نعمةً يحسد جاره عليها قد لا تكون غير نقمة ؛ وأنها ، إن تكن نعمة ، فزوالها عن جاره لن يعني انتقالها اليه ، وانّ للنعم الحقة سبلاً تسلكها الى قلوب المنعم عليهم . فمن شاء ان يتذوّق اية نعمة فعليه ان يعبّد لها الطريق في قلبه ، بدلاً من ان يخرّبه في قلب جاره .

ومتى ذكرت الحسد فاذكر البغض ، والحقد ، والنميمة ، والجشع ، والكبرياء ، والغرور ، وحب الظهور ، والغضب ، وجيشاً لجباً من مثيلاتها . ولعل

الغضب اشدّها هولاً لأنه أسرعها انفجاراً واكثرها دماراً .
والناس – إلاّ النادر النادر منهم – معرّضون لهزاتـه العنيفة على درجات متفاوتة . فهناك من اذا تملكته سورة من الغضب هاج هياج البركان فـأخذ يقذف بحممه في كل صوب ؛ يقذفها من قلبه ومن رئتيه ، ومن فمـه ومن عينيه ، ومن كل قطرة دم ومنبت شعرة ، لا يبالي ماذا تطمر في سبيلها ، ومن تشوي بلظاهـا . فكأنّ الذين أثاروا غضبه ديدان وجعـلان ، وكأنه ربّ الزمان والمكان ، وصاحب السلطان الذي ما فوقه سلطـان ، له الأمر وله النهي ، وليس لايّ من الناس او الاشياء إلاّ الانصياع الى ما يأمر به وينهى عنه .

انها الانانية الجامحة تعبث احياناً برشد صاحبها ووجدانه الى حدّ ان تعميه عن كل ما في الكون ما خلا السبب المبـاشر في إثارة سخطه وغضبه . فيمضي يشتم ويلعن ، ويحطم ويهشم ، ويهدد ويتوعد ، ويرغي ويزبد . ولا يندر ان ينتهي الى القتل . اما ذلك السبب الذي اثار غضبه فقد يكون نسمة هواء هبت على غير ما يشتهي ، وقد يكون طنة ذبابة او برغشة ، او كلمة بريئة من فم طفل بريء ، أو خلافاً في الذوق او في الرأي بينه وبين فرد من افراد عائلته وفي أمر قد لا يكون من الشأن اكثر من شراء مكنسة او مسح حذاء . واذ ذاك فالانسان الغضبان والحيوان الغضبان سيان . ألا نجنا اللهم من غضب الانانية الرعناء

والعمياء !

إن المشاعر التي تذهب باللب وتفسد التوازن في الانسان السويّ فلا يبقى في مستطاعه أن يميز معها الخيط الابيض من الخيط الاسود – خيط الخير من خيط الشرّ – لاكثر من أن يتسع لتعدادها ووصفها مثل هذا المقال . فقد لا يخطر لك في بالٍ ان في جملتها الفرح والحزن . فالفرح ، وعلى الاخصّ ما كان منه ناتجاً عن امور زمنية عابرة ، اذا تمادى فيه صاحبه فعل بلبّه فعل الحمّيا . فاغمض فيه عين الضمير عن كل ما في الكون من وجع ، وشقاء ، وظلم ، وبشاعة . وكذلك الحزن اذا تمادى في القلب أعماه عن كلّ مباهج الحياة ومفاتنها ، وصرفه عن أهدافها التي تسمو الى ما فوق الحزن والفرح . واستثني من ذلك فرح المتعبد اذا ما تجلى له وجه الحق . وحزنه اذ ما انحجب عنه ذلك الوجه لهفوة او هفوات بدت منه ، او لقصور ما تمكن بعد من التغلب عليه . ذانك الفرح والحزن من شأنهما ان يزيدا عين الوجدان قوة وصفاء في اجتلاء الحق ، فهما على عكس الفرح والحزن الدنيويين اللذين من شأنهما ان يعميا عين الوجدان عن الحق وجماله .

جميل بنا ان نحرص على حدقة العين التي بها نميز الخيط الابيض من الخيط الاسود . واجمل من ذلك بكثير ان نحرص على حدقة العين التي نميز بها بين الخير والشر – بين الفضيلة والرذيلة – بين بياض الحق وسواد الباطل .

مَاهِيَّةُ الأدَبِ وَمُهِمَّتُه

من اهم حاجاتنا وانبلها واقدسها حاجة التعبير عن النفس بل هي الحاجة الاهم والانبل والاقدس على الاطلاق ، والتي لولا شعورنا بها لما شعرنا بوجودنا ولما عرفنا شيئاً عن انفسنا وعن الكون الذي نحن منه وفيه . وهي حاجة في طبيعة الحياة التي منها حياتنا قبل ان تكون حاجة في طبيعتنا . أو ليست حياتنا على صورة الحياة الأم ومثالها ؟ فهذه الكائنات التي تملأ الفضاء ، والتي لا حصر لاعدادها ، ولاشكالها والوانها ، ليست سوى تعبير الحياة عن ذاتها لذاتها . ولولاها لكانت الحياة عدماً لا يُحِسّ ولا يُحَس ، ولا يَعرف ولا يُعرف .

والتعبير عن النفس ليس حاجة في الانسان وحده ، بل في كل ذرّة وكل جسد من الذرات والاجساد التي يتألف منها الكون ، منظوره وغير منظوره ، وعاقله وغير عاقله . تنوعت الاساليب والمظاهر ، امّا الحاجة فواحدة. هكذا تعبّر الشمس عن ذاتها بحركتها وبما تبثه في الفضاء من حرارة ونور . والزهرة بما تنشره في الهواء من اريج . والشجرة بما تتفتّق عنه من ساق وفروع ، واغصان وازهار ،

واوراق واثمار . والذين عاشروا الطير والحيوان يعرفون الكثير عن طبائع هذه المخلوقات وعن شتى الحركات والاصوات التي تعبّر بها عن احاسيسها ما بين قلق وإيناس ، ووجل وجذل ، وجوع وشبع ، ووجع وغبطة ، وغيظ ورضا ، وذل واعتزاز وغيرها ، وغيرها ... من المشاعر البدائية التي يشترك فيها الانسان والحيوان بالسواء .

الا ان التعبير عن الذات في سائر الكائنات التي دون الانسان هو تعبير عفوي يلازم حالات بعينها . فلا يتغير ولا يتبدل ، بل يبقى على وتيرة واحدة في الحالة الواحدة . وعندنا من ذلك التعبير الشيء الكثير . كالدمع في حالة الحزن ، والضحك في حالة الفرح ، وتقلّص عضلات الوجه ثم الصراخ عند الالم ، وتوتر الاعصاب واهتياج الدم عند الغضب ، وانكسار الجفن عند الخيبة ، واشراق العين عند النصر ، وانقباض القلب عند الخوف ، وكل حركة وصوت يصدران عنا بطريقة عفوية لادخل فيها للفكر او للارادة . وهذا النوع من التعبير العفويّ لا يأتيه الكذب ولا الرياء ولا التصنع من خلفه او من امامه . فهو ابداً صادق وعين الصدق . وهو على عكس التعبير الذي للمنطق وللعقل وللخيال والارادة فيه قسط كبير . فنحن مكرهون معه على استعمال اقصى ما نملكه من قوة التمحيص والتمييز والتحليل والاستنتاج لنفرّق بين كاذبه وصادقه ، وسليمه وعليله . وكثيراً ما تعمينا رغوته عن صريحه ، ويصرفنا

بريقه عن زيفه . وهذا الضرب من التعبير هو ما ادعوه « التعبير الانساني » تمييزاً له من التعبير العفوّي الذي فرضته الغريزة على الكائنات التي دون الأنسان .

منذ ان تعلّم الانسان النطق ، وتفتح عقله وخياله ، وتنبه وجدانه ، واستيقظت ارادته ، واحسّ نفسه كائناً منفصلاً عن سائر الاكوان ، ثم مشى في طريق الخير والشرّ – منذ ذلك الحين الذي لا يعرف احدٌ مقامه في دورة الزمان ، اخذ الانسان يعبّر عن نفسه بالكلام . فكان الحرف ، وكان المقطع ، وكانت الكلمة ، وكانت الاسماء والافعال وروابطها ومعانيها . فكانت اللغة بقواعدها ، او « اللفظ المفيد » على حد تعبير ابن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم اسم وفعل ثم حرف الكلم

ولكنّ الحرف كان بغير صورة . فكانت الكلمات والعبارات كذلك بغير صورة . فلم يكن من سبيل الى حفظها الا في الذاكرة وعن طريق السمع لا غير . وما اكثر ما تخطئ الاذن ! وما اكثر ما تخون الذاكرة ! فهي لا تؤتمن إلاّ الى حدّ ، ولقد تقلب الامور رأساً على عقب .

ثم كان ان صوّر الانسان الحرف ، واستنبط الحبر والورق والقلم فكانت الكتابة والقراءة ، وكان الكتاب . ثم استنبط فن الطباعة . فانتشر الكتاب انتشاراً واسعاً .

واصبح في مستطاع كل من يملك ثمنه ويحسن القراءة ان يقتني منه ما يشاء . بل ان دور الكتب العامة قد يسرت مطالعة الكتب بالمجان للذين لا طاقة لهم على شرائها .

لقد تمت هذه الامور جميعها على مراحل لا يعلم الا الله كم استغرقت من آلاف آلاف الاجيال . وهي ان دلت على شيء فعلى عناد الانسان في تثبيت نفسه ضد كل العناصر التي تقاومه في الكون ، ثم على رغبته في سحق تلك المقاومة والتسلط على عناصر الكون بأسرها تسلطاً لا ينازعه فيه منازع . وهذا الصراع الهائل الذي لا مهادنة فيه ولا مسالمة ما بين الانسان والاكوان من حواليه هو الطريقة المثلى التي يعبر بها الانسان عن نفسه . فتنكشف له مكامن الضعف والقوة فيها . وما الكتاب سوى السجل الذي يدون فيه كل ما انكشف له من ضعف نفسه وقوتها ، والذي ، بانتقاله من السلف الى الخلف ، يجعل من الحياة البشرية سلسلة متواصلة الحلقات ، وطريقاً ظاهر المعالم .

ولان الانسان يحارب على جبهات عدة في آن معاً فقد ارتأى ان يكون لكل جبهة سجل . فالعلم على انواعه هو سجله للمعارك التي يخوضها في كل لحظة من وجوده ضد ما اغلق في وجهه من عناصر الكون المحسوس . فهو يريد ان يعرف خواصها ، ومماذا تتركب ، وكيف ، والقوانين التي تسير عليها كيما يتاح له ان يستعبدها لغاياته بدلاً من أن يكون عبداً لها .

والدين والفلسفة هما السجلان اللذان يحتفظ فيهما بما اهتدى اليه من الاجوبة على الاسئلة التي ما برحت نفسه تطرحها عليه منذ ان وعى نفسه كأنسان : من انت ؟ ومن اين ؟ والى اين ؟ ولماذا ؟

والفنون هي السجلات التي تشهد بعراكه ضد كلّ بشاعة ، وبفتوحاته في دنيا الجمال ، أكان جمالاً في الايقاع ، ام في الحركة ، ام في الخطوط ، ام في الالوان ، ام في كل ذلك معاً .

والسياسة والاجتماع والاقتصاد وما اليها هي سجلات انتصاراته وانكساراته في تركيز علائقه مع ابناء جنسه على اسس من العدل والمساواة . فلا تتصدع من حين الى حين بهزات عنيفة تأتيها من الطماعين والجشعين والسكارى بلذة الجاه والسلطان ، او من الجياع والمحرومين والمنبوذين والمظلومين .

والتاريخ هو السجل العام الذي يصل ماضيه بحاضره فيدون فيه مجمل ما توصل اليه في صراعه مع الطبيعة ومع نفسه ومع ابناء جنسه .

الا ان العلوم والفنون والديانات والفلسفات على انواع لا يعبر كل منها سوى عن جانب واحد من صراع الانسان مع نفسه ومع الاكوان من حواليه . فكأنها الجداول والسواقي والانهار تنساب في مجار مستقلة بعضها عن بعض فلا تشكل بحراً او محيطاً . اما المحيط الذي تلتقي فيه

جميع تلك المجاري فالأدب . ولقد كان لزاماً على الانسان ان يخلق ذلك المحيط فخلقه . وكان من جميل فطنته ان جعل ذلك المحيط بغير شطوط . فحدوده حدود الطاقة الانسانية على الصراع ضد ما يقيد حرية الانسان في الخلق، ويحول دونه ودون الاستمتاع بحياة لا يشوبها قلق او خوف او ألم ولا يقف الموت لها بالمرصاد . فمن عرف حدود الطاقة البشرية على الكفاح في سبيل الوصول الى اهدافها عرف حدود الأدب . اما أنا فلست اعرف لتلك الطاقة حدوداً . ولذلك لا اعرف حدوداً للأدب فلا انتطح لتحديده او تعريفه في كلمات معدودات .

على انني اذا احجمت – والاصح اذا تورعت – عن تحديد الأدب وتعريفه فليس في احجامي او تورعي ما يحول دوني ودون التحدث عن الأدب . مثلما ليس في جهلي لكُنه الحياة ما يمنعني من ان احياها في كل نبضة من نبضاتي وحركة من حركاتي ، ولا من ان اتحدث عنها بغير انقطاع . فحسبي صلة بالأدب انه قد تغلغل في لحمي ودمي ، وانه خادني وخادنته ، وعايشني وعايشته ، واكلني وشربني ، واكلته وشربته منذ ان دخلت هيكله وصليت في محرابه وانا من شبابي في مثل ما يكون العود وقد تورمت اكمامه وتفتحت رؤوسها عن خضرة ندية ، حيّية .

وما كان ذلك شأني مع الادب الا لأني وجدت فيه المعبّر الافضل عن النفس البشرية . ومتى قلت عن « النفس

البشرية » فقد قلت عن العـــالم بأسره . لان العالم بآزاله وآباده وأبعاده ، وبكل ما فيه ومن فيه ينعكس في تلك النفس انعكاس السماء في قطرة الماء . ومن هنا عظمة الأدب والمكانة السامية التي يحتلها ما بين جميع الجهود البشرية ، والتي لا يرقى اليها اي جهد يحصر همه في ناحية واحدة من نواحي الحياة البشرية . وكل الجهود البشرية — ما عـدا الأدب — تطل على الحياة من نافذة واحدة . في حـــين يتناول الأدب الحياة من كل ناحية . فهو شامل وكل ما عداه من الجهود البشرية محدود بالحدود التي اقامها بنفسه لنفسه .

هكذا يتناول الأدب الدين وما هو بالدين . ويتناول الفلسفة وما هو بالفلسفة . والعلم وما هو بالعلم . والتاريخ والسياسة والاقتصاد ومـــا هو بالتاريخ او بالسياسة او بالاقتصاد . ويتناول هذه الامـور كلها باسلوب ليس فيـه من الدين زمانته ، ولا من الفلسفة جفافها ، ولا من العلم تعقده ، ولا من السياسة سفسطتها ، ولا من الاقتصاد تدجيله . ولكنه اسلوب يثير فكر القارىء وخيـــاله ووجدانه ، اذ يدخله دنيا هي دنياه وكأنها غير دنياه . فقد يبصر فيها ، الى جانب الامور التي يعرفها ، اغواراً واعالي ما كان يحلم بها من قبل . وقد تنكشف له معالم كانت تتراءى له قبلاً كما من خلال ضباب . وقد تستيقظ فيه قوى ما كان يعرف انها هاجعة في اعماقه .

لو ان مؤرخاً من معاصري هوميروس كتب تاريخ حرب طروادة لما كان لنا في تاريخه ولا وشل من بحر من المتعة التي نلقاها في الالياذة . فالالياذة ، وهي مزيج من التاريخ والأساطير ، تفعل بالقارىء والسامع ما ليس يفعله التاريخ وحده ولا الاسطورة وحدها ، ولا التاريخ والاسطورة مجتمعين . وذلك لأنها تتعدى نطاق الاثنين فتبسط امامنا حومة فسيحة تصطرع فيها ارباب السماء الى جانب ارباب الارض ، وتندلع على اديمها نيران الشهوات والنزعات البشرية ، من ارفعها الى احطها ، ومن اقدسها الى انجسها . فللبطولة والامانة والشهامة والحب والواجب والتفاني نصيب منها كبير . ومثله للجبانة والخيانة والخساسة والبغض والتهرب من الواجب وايثار النفس . ونحن اذ نشهد ذلك الصراع نشعر كأننا الميدان والمحاربون في آن معاً ، وإن فصلتنا عن الاحداث التي تدور عليها الملحمة قرون وقرون ، فالانسان في القرن العشرين بعد الميلاد هو عينه في القرن التاسع قبل الميلاد . تبدلت الظروف . اما القلب البشري فهو هو . واما صراع الانسان مع نفسه ومع السماء والارض فهو هو .

ولو ان جيشاً من رجال الدين ، وعلماء النفس ، واساتذة الاجتماع ، واساطين القانون تجمعوا معاً لما استطاعوا ان يؤلفوا لنا رواية كرواية دوستويفسكي « الاخوان كرمازوف » . ففي هذه الرواية الفريدة ترتفع مع الاب

« زوسيما » الى درجـة الاشراق الروحي والانخطاف بنور الالوهة . وننحدر مع « سمردياكوف » الى حـالة البهيمة ، وندور مع الوالد كرمازوف وابنائه ديمتري وايفان وأليوشا في دنيا من الشهوات الجامحة ، والاحاسيس المبهمة ، والافكار القلقة ، والايمان المطمئن والألحاد المتطرف وكل ما يرافق هـذه من تردد واقدام ، وحيرة وثقة ، وانقبـاض وانبساط ، ومرارة وحلاوة . وتلك الدنيا هي دنيـانا . ونحن نخرج منها شاعرين ان الانسان سلّم اسفله في الارض واعـلاه في السماء ، وان درجاته لا تكاد تُعـدّ وأن البعض منا ما يزال في اسفل السلم والقليل القليل قد بلغ اعلاه . اما السواد الاعظم فما يزال بين بين .

ما ذكرت الالياذة و « الاخوان كرمازوف » الا لامثل بهما على ان الادب يشمل كل الجهـود البشرية ولا يشمله اي جهد منها . وفي استطاعة اي اديب او متأدب ان يعدد الامثلة الى ما لا نهاية له . وهل من يجهل ان كل الابواب مباح للأدب ؟ فهو في المعبد والخمارة مـتى شاء ، وفي الحانوت والمعمل ، والمدرسة والبيت ، والمختبر والمستشفى ، وفي البحر والبر ، وبين النجوم ومع الرعاة ، وفي كل مكان يستطيع الانسان ان يطأه برجله او بجناحه او بخياله ، وكل زمان يتصل بحياتـه من قريب او من بعيد . اينما كان الانسـان فالأدب هنالك . ومهما فكر الانسان واشتهى ، وتخيل وتصور ، وقال وفعل ، فكل

ذلك في ادق تفاصيله ومعانيه ، من شأن الادب . وعلى الاجمال فما من كبيرة او صغيرة تهم الانسان الا جعلها الادب بعضاً من همه .

واذن فمهمة الادب هي التعبير عن الانسان وكل حاجاته وحالاته تعبيراً جميلاً ، صادقاً من شأنه ان يساعد الانسان على تفهم نفسه وتفهم الغاية من وجوده ، وان يمهد له الطريق الى غايته . واذن فللأدب رسالة سامية . وكل من انكر على الادب رسالته كان مارقاً من الادب.

ولكن الانسان كائن ولا كسائر الكائنات التي نعرفها على الارض . فبينا سواه من الكائنات الحية يعيش لساعة هو فيها فيأكل ويشرب ويتناسل ثم يموت ، نراه يعيش في الماضي والحاضر والمستقبل . فيأكل ويشرب ويتناسل ولكنه يتمنى لو انه ينعتق من حاجة الاكل والشرب والتناسل . ويموت ، ولكنه يتمنى لو انه يتغلب على الموت . ونراه – فوق ذلك ، يطمح الى معرفة كل ما في داخله وخارجه من اشياء محسوسة وغير محسوسة . فلا حد لطموحه واندفاعه ، ولا نهاية لامانيه واشواقه . وكأن ما حققه الى اليوم من بعض امانيه واشواقه كان ايذاناً له بأنه محقق جميع امانيه واشواقه يوماً ما . فها هو ، ولا اجنحة له ولا زعانف ، يسبق النسر في اجوائه والحوت في بحاره . وها هو ، وسمعه لا يمتد إلا الى فراسخ معدودات ، يسمع في اقصى الجنوب همسةً تنطلق من اقصى الشمال . وها هو ، وبصره كنيف في الظلمات

وحسير في النور دون القصي من المسافات ، يقتنص البرق فيحول الظلمة نوراً ويغزو الابعاد الشاسعة فيقيسها لا بالذراع والفرسخ بل بسنوات من الضوء . والضوء ، كما تعلمون ، يقطع في الثانية ١٨٦،٠٠٠ ميل . وهنالك الملايين من العوالم المنثورة في الفضاء التي تبلغ الابعاد فيما بينها المليون ونصف المليون من السنوات الضوئية . وابعد تلك العوالم التي اتيح له مراقبتها حتى اليوم تفصله عن عالمنا الشمسي مسافة الف مليون من السنوات الضوئية !

ناهيك بربوات العوالم الدقيقة المذرورة في الاثير والتي لا يدركها السمع والبصر ولا اية حاسة من حواس الانسان ، او اية حيلة من الحيل التي استنبطها لتمديد حواسه . وناهيك بالامور التي يفرض وجودها فرضاً ولا يعرف ما هي ، وذلك تسهيلاً لمعيشته وتصريف شؤونه في دنياه . فهو يفرض وجود الاثير ولا يعرف ما هو الاثير ، ويفرض وجود الزمان ولا يدري ما هو الزمان . ويفرض وجود النقطة ولا يعرف ما هي النقطة . ومن النقطة هذه تتكون خطوطه ومقاييس ابعاده ، وعليها تقوم هندساته وميكانيكياته .

في مثل هذا العالم الشاسع المليء بالاحاجي والمغلف بالاسرار يعيش هذا الكائن القزم الذي ندعوه انساناً . ولكنه ، ان يكن قزماً بجسده ، فهو عملاق واي عملاق بفكره وخياله وارادته ووجدانه . وهو ان لاصق التراب

برجليه ففكره يرتاد المجرات ، وروحه في كل مكان وزمان . وكان ذلك شأنه ، وذلك مقامه في الكون ، ليس من السهل ان تعبر عن كل حاجاته ، وكل ميوله ونزعاته ، وكل متاعبه ومشكلاته في مجلد او في مجلدات . ومن هنا هذا الفيض الهائل من المؤلفات تقذفها المطابع بمئات الالوف في كل عام . ومن هنا تعدد الاساليب البيانية وكثرة المذاهب الادبية .

وانه لمن الخير ان تتعدد الاساليب البيانية فيختار كل اديب ذلك الاسلوب الذي يوائم ذوقه وميوله وطبيعته . كأن ينظم الواحد الشعر ، ويؤلف الآخر القصة والرواية ، ويصنف الثالث المسرحيات ، ويستقل الرابع بالنقد ، ويجمع الخامس ما بين هذه كلها . ومن الخير ان تكثر المذاهب الادبية ما بين رومانطيقي وواقعي ورمزي حتى وتكعيبي وتأثري وسريالي . ومن الخير ان يكون هذا الفيض من المؤلفات الادبية ما بين غثها وسمينها ، وتافهها وجليلها . ففي ذلك كله انصع الدليل على حيوية الانسان ورحابة كيانه ، وبالتالي على حيوية الادب ورحابة صدره . اليست الارض تتسع للارزة والقطربة ، وللزنبقة والعليقة ، وللغزال والجعل ، وللذئب والحمل ؟ أليس يتسع الفضاء للنسر والخفاش ، وللكناري والبومة ، وللبازي والبرغشة ، وللورقاء والغراب ؟ اليس يتسع البحر للحوت والمحارة ، وللؤلؤة والاسفنجة ، وللدارعة والزورق ، ولركام الجليد

والصدقة ؟ والانسان ارحب بما لا يقاس من الارض والبحر والفضاء . فهو بغير حدود . فأحر بالادب الذي ما وجد الا للتعبير عن الانسان ان يكون هو كذلك بغير حدود .

الا ان معظم الكتاب – وبالأسف – ليست لهم رحابة الادب ورحابة الكيان الانساني . بل تكاد تكون صدورهم اضيق من سمّ الخياط . فمنهم من ليس يبصر من الانسان الا بطنه . ولذلك يقصر همّه على البطن وحاجته الى الرغيف . ثم يضيق ذرعاً بكل اديب يبيح لقلمه ان يحدث عن جوع غير جوع البطن الى الرغيف . فكأن على الكتّاب جميعاً ان ينقلبوا الى حرّاثين وطهاة وخبازين ليوفروا للناس ما يحشون به بطونهم . الا ليته كان للانسان ان يحيا بالخبز وحده . وليت شبع البطن كان الطريق السويّ الى شبع القلب والفكر والروح . إذن لما كان اقصره واسهله طريقاً الى الطمأنينة والراحة والسعادة ! الا ان الارض تئن لكثرة ما فيها من شباع جافتهم الطمأنينة والراحة والسعادة وحالفهم الخوف والعناء والشقاء . وقد عرفت اناساً فرغت بطونهم من لذائذ العيش وامتلأت قلوبهم بخيرات الحب والجمال والمعرفة والحرية .

العلّني ابارك الجوع الى الرغيف ؟ معاذ الله ! فهو الكفر الذي ما بعده كفر ، وهي الجريمة التي ما فوقها جريمة ان يكون في الارض انسان واحد يطلب القوت

فلا يحصل عليه لأن سواه قد استأثر منه بما يزيد عن حاجته . فجميع خيرات الارض لجميع ابناء الارض — لا لبلد دون بلد ، ولا لجماعة دون جماعة . وهي الخيانة بعينها ان يتعامى الادب عن هذه الجريمة . وهي الجبانة بعينها ان لا يقول للمجرمين : انكم مجرمون ! ولكنها الخيانة الاكبر والجبانة الافظع ان يصرف الادب كل همه الى جوع البطن فلا يلقي بالاً الى جوع القلب والفكر والروح .

ومن الادباء من يحسب الانسان كل الانسان في ظهره لا غير . فمهمة الادب عند هؤلاء هي التبسط الى اقصى حدود الصراحة — والوقاحة — في وصف ما يكون بين الذكر والانثى من علائق لا حصر لالوانها واشكالها ، ولا لظروف الزمان والمكان التي تتكون ثم تمتد او تتقلص فيها . فهم لا يشبعون من التحدث عن الشهوة الجنسية . اذا نظموا شعراً فشعرهم خدود ونهود ، وثغور ونحور ، ولوعة ونجوى ، ومتعة وشكوى ، وقلب مكلوم ، ودم محموم . واذا ألفوا قصة او رواية فسداها ولحمتها التجاذب والتدافع بين الجنسين وما يرافق ذلك من وصل وصد ، وامانة وخيانة ، وزواج وطلاق ، ولذة وألم وغيرها وغيرها من الامور التي لا يجهلها رجل ولا تجهلها امرأة .

ليس من ينكر ما للعاطفة الجنسية من بالغ الاثر في حياة الانسان . ولكن من ورائها غاية اذا نحن ادركناها

بدت كل لذة بهيمية تجاهها قذارة ودعارة . فالانسان ما انشطر الى اثنين فكان ذكراً وانثى الا ليقطع مرحلة الثنائية - مرحلة الخير والشر - فيعرف نفسه ويعود فيتوحد في الانسان الكامل الذي ليس ذكراً ولا انثى . ومن ثم ففي الجسم البشري اجهزة لا تقل في اهميتها عن جهاز التناسل . كجهاز الهضم مثلاً . وجهاز التنفس وغيرهما . فاذا جاز لدعاة الادب الجنسي ان يجعلوا من الادب معرضاً لكل نبضة من نبضات العاطفة الجنسية فعلام لا يجوز لغيرهم ان يجعلوا من الادب معرضاً لكل حركة من حركات الهضم ؟ وهكذا ينتهي الادب الى بيت الخلاء !

وهنالك الذين يودون ان يقصروا هم الادب على الانسان من حيث هو لولب كبير او صغير في جهاز هائل هو الدولة . او من حيث هو مواطن في هذه البقعة او تلك من بقاع الارض . أو من حيث هو مستخدِم او مستخدَم ، ومنتج او مستهلك ، ومستعمِر او مستعمَر . فهو اذ ذاك إمّا حاكم او محكوم ، وظالم او مظلوم ، وحارم او محروم . ثم يقولون لك ان مهمة الادب هي اقامة العدل ما بين الحاكم والمحكوم ، والمستخدِم والمستخدَم ، والمنتج والمستهلك ، ونصرة المستعمَر على المستعمِر ، والمظلوم على الظالم ، والمحروم على الحارم . فالعدل ملح الارض ، والحرية لب الحياة . ويا ليت هؤلاء يسألون انفسهم : ما

هو العدل ؟ وما هي الحرية ؟ وهل في استطاعتهم ان يعدلوا اذا القيت اليهم مقاليد الحكم ، وان يعلموا غيرهم العدل ؟ وهل هم حقاً احرار ليهدوا الآخرين الى الحرية ؟ اذن لأدركوا ان العدل ليس في استبدال قانون بقانون . وان الحرية ليست في تحطيم حكم وتركيز حكم . بل في بناء قلب الانسان وفكره ووجدانه وارادته بناءً لا مجال فيه للظلم والاستبداد والاستعباد . فالمجتمع الصالح لا يقوم الا بافراد صالحين . مثلما لا يقوم البناء الجميل الا بحجارة جميلة . والعدل والحرية لا ينبعان من القانون ، بل من القلب والفكر اللذين هما مصدر كل خير وشر . فمن شاء ان يبني للانسان عالماً يسوده العدل وتظلله الحرية عليه ان يبنيه اولاً وآخراً في قلب الانسان وفكره .

قلت ان مهمة الادب هي التعبير عن الانسان وكل حاجاته وحالاته تعبيراً جميلاً ، صادقاً من شأنه ان يساعد الانسان على تفهم نفسه وتفهم الغاية من وجوده ، وان يمهد له الطريق الى غايته . اما الحاجات والحالات – وهي بغير عدّ – فقد نوهت ببعضها لاحذّر دعاة الادب الموجّه من اقامة حدود الأدب ومن حصره في هذه الحاجة او تلك الحالة . فحدود الادب هي حدود الطاقة البشرية على التفتح والنمو والانطلاق الى ما لا نهاية . واذن فما من حاجة او حالة تستطيع ان تستوعب كل طاقة الادب . وما من حاجة او حالة الا تستمد اهميتها مما تقدمه الى الانسان

من العون على بلوغ غايته من وجوده . فالحاجة الى الرغيف ، مثلاً ، لا قيمة لها في ذاتها . ولكنها تصبح ذات قيمة بقدر ما تساعد الانسان على سد جوعه الى ما هو اثمن وابقى من الرغيف بما لا يقاس . واعني العدل والخير والجمال والمحبة والمعرفة والحرية التي لولاها ، ولولا الجوع والعطش اليها ، لما كان للحياة البشرية من قيمة أو معنى او غاية .

واما غاية الانسان من وجوده فلست اجهل ان الناس ما اتفقوا عليها يوماً من الايام – وعلى الاخص في هذه الايام التي تشعبت مذاهبها وفلسفاتها الى حد بعيد من البلبلة والفوضى . وانا لن اذهب بكم بعيداً فابسط لكم عقيدتي في الانسان ومصدره ومآبه ، ومعنى الولادة والموت ، والخير والشر . وحسبي ان ألتفت واياكم الى ما في قلب الانسان من اشواق لا تنطفيء الى المعرفة التي لا يخفاها شيء مما في السماء وعلى الارض ، والى الحرية التي لا يحدها اي سلطان ، ولا يحصرها زمان او مكان . ولانني اعرف عناد الانسان في ماضيه ، وثباته في صراعه مع المجهول ، ودهاءه في التغلب على العقبـــات التي تحول دونه ودون تحقيق اشواقه فانا واثق كل الثقة من انه سيبلغ كل اهدافه في النهاية – واهمها المعرفة القصوى ، والحرية التي لا تحد ، والحياة التي لا يغتالها موت . ولولا ذلك لما كان عندي لاي عمل من اعمال الناس اي قيمة ، ولمـــا نظرت الى الادب نظري الى اهم وانبل واقدس جهد من الجهود

البشرية على الاطلاق . فهو البحر وغيره الروافد .

وان اسفت لشيء فلأن الكثير من الادباء يمارس الادب كما لو كان حرفة لا اكثر . فهو عندهم لتسلية القارىء وصرفه عن نفسه ، ولكسب الثروة والشهرة ، وللمباهاة بعبارة بارعة او قصيدة « عامرة » ، او رواية رائجة . او هو عندهم معرض لمفردات اللغة وقواعدها ، وميدان تتبارى فيه ذاكرة وذاكرة ، وعارضة وعارضة ، بدلاً من ان يكون ولادة وعبادة . فالاديب في نظري ، يجب ان يولد ولادة ، بل ولادات جديدة في ادبه وان تكون له في كل ولادة عبادة – عبادة الحياة المقدسة التي تمشي به من غيبوبة الجهل الى يقظة المعرفة ، ومن ظلمة العبودية الى سناء الحرية . ومتى كان للاديب في ادبه ولادة وعبادة فلا فرق عندي اذا هو وقف ادبه على الدفاع عن حقوق العطاش والجياع ، او حقوق المنسيين والمهانين ، او حقوق المظلومين والمستعبَدين . او اذا هو انصرف الى نواح اخرى من نواحي الحياة البشرية . فالمهم ان تتوهج كلماته بحرارة الواثق من صدق ما يقول كيما تتوهج بها قلوب قرائه وافكارهم . والمهم ان لا يضيق صدره بالادباء الذين وقفوا ادبهم على بناء قلب الانسان وفكره ووجدانه وارادته كيما يبصر هدفه ويسلك الطريق السوي اليه .

وانه لمن الخير للادب ان تتعدد مناهجه ووظائفه . فلا يعمل الكتاب كلهم عملاً واحداً . فبناء الحياة الذي هو

شغل الادب لا يختلف من هذا القبيل عن اي بناء. واي بناء لا يحتاج في تشييده الى مهندسين وبنائين والى من يقطع الحجارة ويهندمها، والى من يحفر الاسس، والى من يجبل الطين، والى من يناول الحجار الصغيرة لتسند الكبيرة؟ ان يكن البناء من حجر وطين في حاجة الى جيش من العمال، فكيف ببناء الحياة؟ فليفهم الادباء ذلك وليفهموا فوق ذلك ان كل عمل في بناء الحياة هو عمل شريف. فلا سبيل الى المفاضلة ما بين هذا وذاك. وليفهموا اخيراً انه من الاثم ان يُكرهوا المهندس على جبل الطين، والبنّاء على طهي الطعام للعاملين.

ان في اقتسام العمل لراحة للعمال وضمانة لنجاح العمل. وانا ما الحث على هذه الناحية من مهمة الادب الا لعلمي بما في هذه الايام من تيارات عنيفة، متضاربة، تتقاذف الادب تقاذف الموج لخشبة في عرض اليم. وهذه التيارات ما بين سياسية واجتماعية واقتصادية وقومية وعلمية وسواها تكاد تنحرف بالادب عن مهمته الانسانية السامية الى حيث يغدو بوقاً لهذا المذهب او لذلك، وقذيفة جهنمية ضد كل مذهب خالفه او عاكسه. حتى لنستطيع القول ان الادب مصاب اليوم بشيء من ضيق الصدر والنفس. وعلى الاخص في دنيا العرب حيث لم يبلغ الادب اشده بعد.

والادب في دنيا العرب ما بلغ بعد اشده، ولن يبلغه حتى تكون لنا امور ثلاثة:

١ – لغة سلسة القياد .
٢ – امة لا تعاني ، في جملة ما تعاني ، مركّب النقص .
٣ – حرية الكلمة .

اما اللغة فلست اغالي اذا قلت انها من اوسع لغات الارض واغناها بالمفردات والاشتقاق ، وانني احبها الى درجة الهيام . فهي في لحمي ودمي . ولكنها ، الى جانب غناها باشياء واشياء ، تفتقر اليوم الى الكثير من الاصطلاحات التي تفرضها حاجات عصر كل ما فيه يعدو بسرعة خاطفة . فهي لا تصلح للتمثيل ما دام الفرق شاسعاً ما بين فصيحها وعاميّها . ومن هنا الضعف في المسرح العربي . وهي ان صلحت للقصيدة والمقالة الى حد بعيد فلا تصلح للقصة والرواية الا بمقدار . وذلك لكثرة ما نستعمله اليوم من اشياء محسوسة وغير محسوسة ما كان لاسلافنا عهد بها . فما وضعوا لها المفردات ولا وضعناها نحن . ناهيك بما في صرفها ونحوها من تعقّد ، وبما في كتابتها وقراءتها من مشقة . وليس يُصلح الخلل او يخفف من ضرره ان يقول قائل ان عند غيرنا لغات فيها من التعقيد مثل ما في لغتنا . فمثل هذا القول لدليل على مركب النقص فينا . وهل ضيق غيرنا يجعل من ضيقنا فرجاً ؟

لست بجاهل ان حديث اللغة حديث ذو شجون ، وانه يثير هواجس ونعرات في اذهان بعض الناس الذين يعبدون الخليقة دون الخالق ، فيحسبون العربية اقدس من

العرب الذين خلقوها ويعدّونها كاملة وعنوان الكمال . وانت لو سألت هؤلاء هل يؤمنون بالتطور لأجابوك : نعم . ولو سألتهم هل يريدون الكمال للأنسان لأجابوك : نعم . فياليت شعري كيف يتطور الانسان ولا تتطور لغته ؟ وكيف يبلغ الكمال مَن لغته ناقصة ؟

واما مركّب النقص فشاهده ان ابناء الضاد ما زالوا يستكبرون كل ما يأتيهم من الغرب وان يكن صغيراً — ويستصغرون كل ما ينبت في ديارهم وان يكن كبيراً . الا اذا شهد الغرب بانه شيء كبير . فهو اذ ذاك عند العرب كبير وجدّ كبير . وحسبهم اتكالاً على الغرب أنهم يتمذهبون بمذاهبه ويأتمون بأئمته . فانت لا تقرأ لهم مقالاً عن كاتب عربي حتى تقرأ عشرين عن كاتب افرنجي . وانت لا تسمع بمذهب ادبي خلقه ثم تزعّمه كاتب عربي . ولولا مركب النقص فينا لآن لنا ان نستقل عن الغرب وان نخلق ادباً بينه وبين ماضينا وحاضرنا ، وبين سمائنا وارضنا ، وبين ما تعمر به قلوبنا وافكارنا تجانس وتقارب وتجاوب .

واما حرية الكلمة فالذي عندنا منها لشيء جدّ يسير . وهذا اليسير يبتدىء وينتهي بحرية نقد الحكام والاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية . بل ان هذا اليسير يكاد يكون معدوماً في اكثر البلدان العربية . ولكن الحرية التي اعنيها هي حرية التعبير عن كل ما يجول في خاطر

الكاتب ، حتى وان عارض التقاليد التي نقدّسها والعقائد التي ندين بها . وحرية التعبير هذه هي في شرعي اقدس من اي تقليد واي عقيدة . وهي التي تخلق التقاليد والعقائد . افليس من الغرابة – بل من الفظاعة – بمكان ان ترتد عليها مخاليقها فتخنقها ؟

ان الذين ناضلوا والذين استشهدوا في سبيل حرية الفكر والكلمة من فلاسفة وعلماء ورسل وانبياء لجيش جرّار . ولولاهم لكانت البشرية في ظلمات من عيشها دامسات . فتقييد حرية الفكر والكلمة في ما قاله وفعله اولئك الشهداء والمناضلون والانبياء والمرسلون لهو الكفر بهم وبكل ما قالوه وفعلوه .

وماذا الذي تخشاه اي عقيدة من حرية الكلمة ؟ ان تكن تلك العقيدة من مصدر فوق الانسان فلن تقوى عليها كلمة الانسان . وان تكن من الانسان فللانسان الحق ان يتناولها بالشك والتجريح ، والدرس والتحليل ليكيّفها بحسب ما يقتضيه تطوره من حال الى حال . ولولا التطور لكان الانسان جاداً ، ولما كان في حاجة الى اي عقيدة . ومن ثمّ فما نفعه من فكره ووجدانه وارادته وخياله – وكلها هبات ربانية – اذا هو لم يستعملها ليفهم بها نفسه ويفهم ربه ؟ اليس الكفر بالعطية كفراً بالمعطي كذلك ؟

ان الحرية – حرية الكلمة – ضرورة للفكر والقلب ، وبالتالي للأدب ، كما هو الهواء والماء والغذاء لكل جسم

حي . فحيثما كانت الحرية سجينة المخاوف والتقاليد والعقائد كان الادب كذلك سجين المخاوف والتقاليد والعقائد ، ففسد الهواء الذي يتنشقه ، والماء الذي يشربه ، والغذاء الذي يتناوله . فكان هزيلاً ومائعاً وجباناً . وانه لمن الاثم الذي لا يغتفر أن نقسو على الادب الى ذلك الحد جاهلين اننا بذلك نقسو على الانسان الذي ما وُجد الادب الا ليكون عوناً له على فهم نفسه وفهم الاكوان التي حواليه. والا ليمهّد له سبيله الى المعرفة التي لا يفوتها علم شيء ، والحرية التي لا يقيّدها اي سلطان . فالانسان ما نطق الا ليفتح بالنطق جميع ما اغلق عليه من ابواب ، ولا استوطن الارض الا ليقفز منها الى السماء .

رسالة الشرق المتجدد

ليس عليك ان تكون نبياً لتقرأ ما يخطه إصبع القدر على جبين هذه الحقبة من تاريخ البشرية . فالمدنية الغربية المسيطرة على العالم منذ اجيال واجيال تتخبط اليوم في شباك من المشكلات المعقدة التي خلقتها من نفسها لنفسها وتفتش عن باب للخلاص فلا تهتدي اليه . ذلك لانها صرفت جل اهتمامها الى العقل وترويضه وتنظيمه . فكانت هذه الطفرة الباهرة في دنيا العلوم النظرية والتطبيقية ، وكان هذا الفيض العارم من الاختراعات العجيبة والاكتشافات المدهشة . اما القلب الذي تصطرع فيه سود الشهوات وبيضها فما احسنت ترويضه وتنظيمه . فكان هذا الطغيان الذي نشهده اليوم من انانية وحقد وبغض وتنابذ وجشع ومكر ودهاء وغيرها من الشهوات السود . ومن شأن هذه الشهوات ، اذا استفحل أمرها ، ان تعبث بنتاج العقل فتجعله أداة تخريب بدل التعمير ، ومصدر شقاء لا هناء ، ونقطة انزلاق لا انطلاق . وها هي تقوض اليوم اركان هذه المدنية مثلما قوضت اركان ما سبقها من مدنيات .

واني لاسأل : اذا انهارت المدنية الحاضرة - ولسوف تنهار - فمَنذا الذي سيرفع للبشرية مشعل الهداية ،ويقيلها من عثرتها ، ثم يقودها في الطريق السويّ الى الهدف السنيّ المعد لها منذ الازل ؟

ان للازمنة دلائلها . ودلائل زمانٍ نحن فيه لا تترك في ذهني اقلّ الشك في انّ الشرق مدعوّ للقيام بهذه المهمة الخطيرة من جديد . فهو الذي انبرى لها مرّةً بعد مرة منذ فجر التاريخ ، فما افلح الافلاح كلّه ، ولا أخفق الأخفاق كله . وما الديانات التي نشرها في الارض ، على اختلاف اسمائها ومسالكها ، سوى مناهج ترمي الى ترويض القلب عن طريق الخير والشر على تذليل شهواته السود لشهواته البيض كيما يتاح له ان يبصر طريقه الى الهدف الأبعد والاسمى . ألا وهو المعرفة الكاملة والقدرة الكاملة والحرية الكاملة التي من شأنها ان تعود بالانسان الى مصدره الالهي فتجعل منه الهاً .

تلك في خطوطها الواسعة ، هي رسالة كلّ دين من الاديان التي جاء بها الشرق . ولقد حاول الشرق في ما مضى ان يطبّق دينه على دنياه وان يجعل من الارض سلماً يرقى به الى السماء فما نجح من بنيه غير افراد . اولئك هم الانبياء والاولياء والقديسون والمختارون . اما الجماهير فقد أجهدتها المحاولة وانهكت قواها . فلاذت بالقشور وأهملت اللباب . وكان من ذلك ان انشلت القوى الخلاقة

في اديان الشرق واذا بها تغدو طقوساً متحجـــرة واداة تفرقة وتنابذ بين الشعوب بدلاً من ان تكون اداة جمع وتعاون .

وهكذا هجع الشرق هجعته الطويلة . وقـــد سيم في خلالها شتى انواع الذل والهوان عـــلى يد أخيه الغرب . ولكنه اليوم ينتفض انتفاضة الجبار . فينزع عنه مَعلماً تلو معلم من معالم الاستثمار والاستعمار ، ويكتسح ظلمات الذل والهوان ، ويعمل بنشاط واندفاع عـــلى ترميم ما انهار من عزيمته ، واسترداد ما ضاع من حقه ، وتليين مـــا تصلب من شرايينه ، فهو كالنسر يجدّد شبابه ويتطلع الى عالم أرحب وأفضل وأجمل من عالم هو فيه .

وما هو العالم الذي نعيش فيه اليوم وكأننا نعيش على فوهة بركان ؟ انه لعالم انشطر الى معسكرين مدججـــين بالسلاح ، وكلاهما يرتقب الفرصة المؤاتية لينقض على الآخر فلا يبقي ولا يذر . وليس يعنيهما من الانسان انه بـذار إلـهي معدّ لان يلبس وشاح الالوهة . ويعنيهما منه انه منتج ومستهلك ، ومحكوم وحاكم ، وصاحب عمـل او عامل ، وانه ابيض أو اسمر او اسود او اصفر او احمر ، وانه وطنيّ في هذه البقعة ، واجنبي في كل ما عداها من بقاع الارض . واخيراً انه كائن يتزاوج ويتناسل ، وبكلمة اخرى إن كلا المعسكرين لا يبصر من الانسان غير ظـلّه وقشوره . ولذلك فكل محاولة يبديها لتوجيهه في هـــذا

الطريق او ذاك بقصد الوصول به الى الحرية والسعـــادة لمحاولة مصيرها حتماً الى الفشل فالى الكارثة .

ويقيني ان الشرق المتجدد يستطيع ان ينجّي العالم من الكارثة اذا هو عرف كيف يتحرر من ربقـــة الطقوس المتحجرة وكيف يستمد القوّة والهداية من معلميه العظام. فرسالته اذ ذاك هي تذكير الناس في كل مكان بأن هدفهم واحد وطريقهم الى الهدف واحد ؛ وانّ عليهم ان يسلكوا ذلك الطريق متعاونين لا متنابـــذين ، وسلاحهم الفكر والوجدان والخيال والارادة لا الظفر والنـــاب ؛ وانهم متى ادركوا سموّ الهدف الذي اليه يسيرون أصبحت فوارق الجنس واللون واللغة والمذهب عوناً لهم في سيرهم بدلاً من ان تكون عراقيل وحجار عثرة ؛ وان الارض هي ميراث الكل ويجب ان تُستغل لخير الكل ؛ وانـه لمن اكبر الخير للانسان ان يحب جاره بدلاً ان يبغضه ؛ وانّ قتل الآخرين مـــا جلب في يوم من الايام الهناء والسعادة للقاتلين — بل على العكس. لقد جلب لهم الوجع فالشقاء فالموت .

ويقيني كذلك ان الهند التي نفحت العالم بالحكمـة من أصفى منابعها مؤهلة من بعد يقظتها الحديثة لتوجيـه العالم ذلك التوجيه الجديد . اما الشعوب العربية — وريثة ثلاث من اعظم الديانات واكثرها انتشاراً في الأرض — فعليهـا ان تساند الهند في تأدية رسالتها النبيلة . وما المثال الجميل

الذي اعطاه غاندي غير مقدمة بارعة لأمثلة كثيرة يستطيع الشرق – والهند على الاخص – تقديمها لهذا العـالم الغارق في رغوة الحياة وزبدها الى ما فوق اذنيه . اما الاجيال الحاضرة والاجيال الطالعة في الشرق فعليهـــا ان تطهر افكارها وقلوبها من ترهات كثيرة التقطتها هنا وهنالك وان تلقحها من جديد بايمان الشرق بالانسان الذي هو صورة الله ، وبهدفه الابعد والاسنى – ألا وهو معرفة كل شيء والقدرة على كل شيء ، والبقاء الذي لا يطاله فناء .

إن قلوباً وافكاراً عامرة بمثل ذلك الايمان لأمنع من ان تنال منها أفظع الاسلحة الجهنمية منالاً . وإن روح الشرق الذي قهر الزمان لروحٌ لا يُقهر ولا يموت .

عاماً سعيداً

عام جديد !

واي عام ليس بالجديد ؟ اهو العام الذي نطويه الليلة ليعود فينشره الغد ؟ ام هو اطول عام طواه آدم وحواء منذ ان كوّرت السماء وكوّنت الارض ؟ وها هي الاعوام التي تلته حتى اليوم والتي ستتلوه فيما بعد مثقلة باسراره وبذاره . وهل نحن نطوي الاعوام الا كما يطوي الولد الصغير صفحات كتاب كثرت رسومه ورموزه ؟ فهو لا يعنيه من الكتاب اكثر من ان يسلي ناظريه بما فيه من غريب الصور . اما ما جاء من شرح لتلك الصور فلا يفقه منه حرفاً واحداً ، وجلّ همه ان يتنقل من صفحة الى اخرى مدفوعاً بالشوق الى مناظر جديدة واحساسات جديدة ، وغير عالم انه ما لم يفهم الصفحة التي امامه لن يفهم التي بعدها . فهو وان بلغ الاخيرة ما تعدى في الواقع الصفحة الاولى . فهي جديدة وان ظنها قديمة .

يدور الزمان على ذاته . فهو كالحلقة كل نقطة منها تصلح ان تكون بداية ونهاية معاً . واذ ذاك فالآتي

يغدو ماضياً والماضي يصبح مستقبلاً . واذ ذاك فكل قديم جديد . وكل جديد قديم . ونحن لا نودع اليوم عاماً الا لنستقبله غداً . ولا نستقبل عاماً الا وقد ودعناه امس .

ويا ليتنا اذ نودع عاماً نعرف ماذا نودع . واذ نستقبل عاماً نعرف ماذا نستقبل . ففي كل لحظة من وجودنا يبتدىء عام وينتهي عام . وفي كل لحظة يتلاقى الازل والابد . وما من عام يمر بنا الا يحمل الينا كل ما نشتاقه من قوة ومعرفة وخير وجمال وحق وسلام . مثلما لا يمر عام الا يحمل الينا كل ما بذرناه في تربة سلفه من ضعف وجهل وشر وقباحة وبطلان وخصام . لذلك تتشابه اعوامنا تشابه الليل بالليل والنهار بالنهار . فيسر وعسر ، وعدل وعسف ، وسرور وحزن ، وسلم وحرب ، وولادة وموت . ولذلك نستعجل الزمان لعل الغد يأتينا بالخير دون الشر ، ولعل العام الجديد يحمل الينا الحياة دون الموت . وفي ذلك من التمويه وخداع النفس ما فيه . اذ ليس من المعقول ان يجني السّلم مَن يزرع الحرب ، والحبَّ مَن يبذر البغض ، والسعادة من لا يزرع الا الشقاء ، والحياة من لا يعيش الا بالموت .

جميل ان يتمنى الناس بعضهم لبعض في رأس كل سنة « عاماً سعيداً » ولكن التمني لا نفع منه إلا ان نعمل بصبر وصلابة وايمان على الفوز بما نتمناه . والاجمل من

تمنيتنا الخير والسعادة لانفسنا ولجارنا ان نساعد انفسنا وجارنا على التطهر من كل ما من شأنه ان يقصي عنا وعنه الخير وان يفسد السعادة علينا وعليه . اما الامور التي تقصي عنا الخير وتفسد علينا السعادة فما اظن عاقلين يختلفان فيها ، وهل من يجهل ان مغبة الطمع التخمة ، وان عاقبة البغض الاحتراق بنار البغض ، وان المين تهلكة للروح ، وان الظلم موطنه الظلام ، وان الفسق مقبرة الفاسقين ، وان حب السلطان سجن للسلاطين ، وان الحرب لا تنسل الا حروباً ؟ وعلى العكس من هذه كلها هي القناعة بحاجة النفس والجسد ، والمحبة ، والصدق ، والعدل والطهارة ، وكره التسلط على الناس ، وتحكيم العقل مكان القوة .

فياليت الناس اذ يتبادلون التهاني الجوفاء في رأس كل عام يتبادلون معها الاعتراف بأن لكل منهم نصيباً في ما اصاب الآخرين من شقاء وقسطاً في ما تذوقوه من هناء . ثم يا ليتهم يتبادلون العهود الصادقة على الاقلاع عن كل ما يجلب لهم الشقاء ، والاكثار من كل ما يعود عليهم بالهناء .

ان عيد رأس السنة يجب ان يكون يوم تنقية وتصفية حساب لا يوم هرج ومرج وعربدة وبطالة . اذ ليس في اتمام دورة من دورات الارض حول الشمس ما يدعو الى الهرج والمرج والبطالة والعربدة . ولكن في كل نبضة من نبضات الارض وغيرها من الافلاك ، وفي كل نبضة من

نبضات قلوبنا ما يدعو الى الدهشة والتأمل والذهول عن النفس الطماعة بغير حد في الملذات التي تلازمها الآلام ملازمة الظل للنور . ولو ان الناس تعلموا كيف تكون تنقية النفس وتصفية الحساب لما ردوا الماً واحداً من آلامهم لسبب او اسباب خارجة عنهم . الا انهم ما تعلموا شيئاً من ذلك بعد . فما نزلت بهم نازلة وقالوا إنهم جلبوها على انفسهم بنيات نووها وافكار فكروها واعمال عملوها . بل تراهم ابداً يلومون كل ما في السماء وعلى الارض . أما انفسهم فما يلومون . واللوم عليهم اولاً وآخراً . فالامر الذي لا يقبل الشك في عقيدتي هو ان بين النيات والافكار والاعمال وبين ما ينتج عنها من صروف وأحداث تجاذباً وتدافعاً كما بين الاجرام في افلاكها ، والمعادن في مخابئها ، والطير في اجوائها . فما نزلت نازلة بانسان الا لانه جذبها اليه باشياء فكرها أواشتهاها او عملها . ولا افترت لانسان ساعة بشر وسعادة الا لانه فعل او فكر او اشتهى ما من شأنه ان يجذب اليه ساعة بشر وسعادة .

فعلينا قبل ان نتمنى لأنفسنا ولغيرنا « عاماً سعيداً » ان نحاسب انفسنا عن كل ما جلب علينا الشقاء في العام الذي انصرم ومن ثم ان ننقي منه قلوبنا كيما تصبح مساكنَ لائقةً بالسعادة . وقلب واحد تسكنه السعادة في الأرض لكفيل لكل القلوب بان السعادة لا تستنكف من

اختيارها مسكناً لها اذا هي وجدتها لائقة بها . وانسان واحد اكتشف الطريق الى السعادة لدليـــل صادق لكل الناس الى قلب السعادة .

تمنيت ، وقـــد اختلط حابل الناس بنابلهم في هذه الايـام ، فتقاربوا حيث كانوا متباعدين ، وتباعدوا حيث كانوا متقاربين ، ثم تفاهموا في امور وتخالفوا في امور — تمنيت لو انهم يتواضعون على يوم واحد تتخذه سائر الشعوب والملل عيداً لرأس السنة . فليس ادعى الى التفرقة من عيد كعيد رأس السنة تعيّده شعوب الارض في ايام مختلفة . وليس ادعى الى التقريب بين الشعوب من عيد كهذا العيد يعيّده الناس في يوم واحد اينما كانوا ولأيّما دينٍ انتسبوا .

لئن عز علينا ان نربط الناس برباط واحد من الدين والموطن واللغة ليشعروا انهم عائلة واحدة فلا اقل من ان نربطهم بعيد واحد في السنة يعيدونه معاً لغاية واحدة . لعلهم يشعرون انهم جماعة واحدة يجرفهم تيار واحد الى غاية واحدة ونهاية واحدة . اما التيار فهو الزمان . واما الغاية والنهاية فالقدرة التي منها واليهـــا الانسان ، وفي قبضتها الزمان والمكان . واذ ذاك فما اجمل ان تتجاوب الارض والسماء ولو في صبيحة يوم واحـد من ايام السنة بدعاء الناس بعضهم لبعض :

عاماً سعيداً !

الشرفُ الرَّفيع

من ابيات المتنبي التي يرددها الناس بمنتهى الاعجاب بيته المشهور :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبه الدم

واني لاسأل المعجبين بهذا البيت عن « الشرف الرفيع » ما هو ؟

ومن أين يأتيه الأذى ؟

وكيف يسلم من الاذى اذا أريق الدم « عن جوانبه » ؟

ودم مَن ذلك الذي يجب ان يراق : اهو دَم الذي آذى الشرف ؟ ام دم الذي أوذي في شرفه ؟ ام دم الاثنين معاً ؟

وهل هنالك انواع من الشرف : فشرفٌ رفيع . وشرف وضيع . وشرف لا هو بالرفيع ولا بالوضيع ، ولكنه بين بين ؟

وهل الشرف الرفيع هو وحده الذي لا تُغسل الاساءة اليه بغير الدم ؟ اما ما دونه من انواع الشرف فيكفي لغسله لطمة او شتمة ، أو قليل من الوحل او البصاق ؟

ما اظنّ ان في اللغة – في ايّة لغة – كلمةً شريفة يمتهنها الناس امتهانهم لكلمة « الشرف » . فهم ابداً يشرّفون ويتشرفون في كل ما يفعلون ويقولون . حتى كأنما الشرف لقاح عالق بثيابهم ينثرونه يميناً وشمالاً أو نفَس يقذفونه من صدورهم ، أو نظرة يلقونها من زوايا عيونهم ، أو لمسة خفيفة من أناملهم ، او كلمة سخيفة تنزلق عن السنتهم .

يتعارف اثنان فيقول واحدهما للآخر : تشرفنا . ويقدم رجل الى رجل لفافة فيقول له شرّف ! ويزور قوم قوماً فيقول اهل البيت للزائرين عند انصرافهم : شرّفتم ! فيجيبهم الزائرون : تشرّفنا ! والطريف الطريف ان تسمع الناس يقسمون بشرفهم كما لو كان ذلك الشرف أطهر من الثلج ، وأسطع من نور الشمس ، وأعزّ على قلوبهم من قلوبهم ، وأبعد أثراً في حياتهم من حياتهم . فكأنه والعزّة الالهية في مرتبة واحدة من حيث القيمة والاهمية .

« بشرفي ! » – تسمعها من الكبار والصغار ، والعقلاء والجهلاء ، والاغنياء والفقراء كلّما اشتدت بهم الرغبة في اقناع غيرهم بصدق ما يدّعون . يقولها اللص للصّ اذا اختلفا على اقتسام غنيمة . وتقولهـا المومس للمومس اذا تعاتبتا في أمر من الأمور . ويقولها الحشاش للحشاش ، والسكّير للسكّير ، والبائع للشاري ، والحوذي للراكب ، والنائب للناخب ، وصبيّ يلعب بالأكر لرفيق له في اللعب . يقولها الكل بغير استثناء ، وكثيراً ما يكون قائلها أكذب

مَن كذب ، وأسرق مَن سرق ، وأفسق مَن فسق . وقد يتفق ان يكون جلاداً في جبّة قاضٍ ، وقطاع طرق في منصب وزير ، وشيطاناً يعتمر قلنسوة أو عمامة !

وما قولك بالذين يسكرون حتى الجنون إذا هم « تشرفوا » بالمثول لدى ذي مقام رفيع ، او « بلثم الانامل الطاهرة » لملك من الملوك او سلطان من السلاطين ؟ او اذا هم نالوا لقباً او وساماً ؟ او اذا عزّاهم « كبير » بمفقود أو هنأهم « عظيم » بمولود ؟

ثم ما قولك بالذين شرفهم لا يستقر على حال ، بل يتبدل بتبدّل الزمان والمكان ، فكأنه « يلبس لكل حالة لبوسها » ؟ فشرفهم في النهار غير شرفهم في الليل ، وفي السوق غيره في البيت ، وفي المعبد غيره في المقهى ، ومع مَن هم فوقهم غير ما هو مع الذين دونهم . وشرفهم اذا باعوا غير شرفهم اذا اشتروا ، واذا اغتنوا غير شرفهم اذا افتقروا .

لعمري ان ما يتداوله الناس باسم الشرف لشرف زائف بل هو نقيض الشرف على خط مستقيم . وذلك لأنه شرف يخلعه الناس على الناس وينزعه الناس عن الناس . والناس كما تعلم ، يمارون ويداجون ، ويتملقون ويتزلفون ، ويتحاسدون ويتباغضون ، وعلى مودّة أو عداوة لايثبتون ، فلا عجب ان ينزعوا اليوم عن انسان شرفاً خلعوه عليه امس ، أو ان يخلعوا في هذه الساعة على انسان شرفاً

نزعوه عنه قبل ساعة ، بل العجب كلّ العجب في ان يتمسك واحدهم بما خلعوه عليـــه من « شرف » فيمضي يباهي به ، ويستميت في الدفاع عنه حـــتى ضدّ الذين خلعوه عليه .

والاعجب من ذلك أن ترى الناس قد خلعوا على كل مهنة او حرفة شرفاً . فشرف للقضاء ، وشرف للطبّ ، وشرف للمحاماة ، وشرف للبحرية ، وشرف للجنـــدية ، وشرف للملاكمة والمصارعة ، وشرف للتعليم ، الى آخر ما هنالك من مهن وحرف . وكل ذي مهنة يمسي مطالباً بشرفين شرفه الخاص وشرف مهنته . وللناس في الدفاع عن شرفهم من غريب الاساليب وعجيبهـا ما يضحك ويبكي . فالذي يخونه زنده لا تخونه عصاه . والذي تخونه عصاه لا يخونه لسانه . والذي لا يكفيه لسانه يستجير بالقضاء . والذي لا يشفي القضاء غليله يحتكم الى المدية او المسدس . حتى اذا ما طمر خصمه بالاقذار ، أو أشبعه لكماً وضرباً ، او اثخنه جراحاً ، أو اكرهه بواسطة القاضي على دفـــع ترضية له عن شرفه المثلوم ، عاد الى بيتــه وذويه مرفوع الرأس ، ضاحك العين ، منبسط الاسارير وكأنه يقول : « أرأيتم كيف استعدت شرفي سليماً من الاذى ، طاهراً من الاقذار ؟ »

ان شرفاً يعطيكه لسان وينتزعه منك لسان لشرفٌ اقل ما يقال فيه إنه العوبة الأقدار ، وذرّة من هباء في

الهواء – وشرف ذلك شأنه ليس حقيقاً بان تُبذل في سبيله كلمة او حركة . فكيف بأنهار الدماء تراق « على جوانبه » ؟

ما عرفت رجلاً صادقاً جعله كلام الناس كذوباً ولا كذوباً استطاعت السنة الناس ان تجعل منه رجلاً صادقاً . فما أسخف الصادق يمتشق سيفاً في وجه من اتهمه بالكذب ، او يلجأ الى القضاء ليبرهن للناس انه صادق ! وما أحمق الكذوب يحاول ان يثبت بالشتائم ، وبالوعيد والتهديد ، انه رجل صادق ! فالزمان للاثنين بالمرصاد . وهو الشاهد الوحيد الذي لا تخدعه دعاية ، ولا يصرفه عن الحق اي تهويل . ثم ما اجهل الناس يتقاتلون ويتباغضون ويتناحرون في سبيل ما يتوهمونه شرفاً وما هو من الشرف بخمر او بخلّ . وحسبه زيفاً ان يكون هبةً من الناس الى الناس . إذ كيف للناس ، وهم حيث هم من الضعف والجهل وتضعضع الافكار والنيات ، وتضارب الآراء والشهوات ان يشرّف واحدهم الآخر ؟

انما يشرف الانسان من كان فوق الانسان . اما الانسان فليس له ان يشرّف أخاه الانسان . وكيف للانسان الذي ما صفا بعد من ادران شهواته الارضية ان يشرف إنساناً مثله ؟ كيف للذبالة التي ليست نوراً صافياً ان تشرّف ذبالة اخرى اذا هي اعطتها من نورها – ونورها ليس منها بل من الشمس ؟ انما تشرّف الشمس

الذبالة اذ تعطيها من نورها . فشرف الذبالة ليس في انها ذبالة ، بل في انها تحمل قسطاً ، مهما يكن ضئيلاً ، من نور الشمس تستطيع أن تبدد به بعضاً من الظلمة التي حواليها .

أنقول اذن انّ الشرف اسم لغير مسمّى ؟

لا ، لعمري . بل هنالك الشرف الرفيع الذي لا يعلوه شرف والذي لا يمتّ بصلةٍ الى محتدٍ او ثروة او جاه او أيّ منصب مدنيّ او عسكري او دينيّ . وهو واحد لا يتجزأ ولا يتغير ولا يتبدّل . ولانه شرف لا يخلعه انسان على انسان ، فلا يستطيع انسان ان ينتزعه من انسان ، وأعني به شرف الالوهة التي مهرت به الحياة قلب الانسان فبات ، عن وعي وعن غير وعي ، يسعى بكل ما أوتيه من قوى لا تحدّ للتمتع به كاملاً ، صافياً ، ابدياً .

ذلك هو الشرف الرفيع الذي يحق للانسان ان يعتز به ، وان يدافع عنه ، ، وأن يصونه من كل اذى . والاعتزاز به لا يكون بالتبجّح والاعتداد بالنفس :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

بل بانكار الذات البشرية الفانية طمعاً بالوصول الى الذات الالهية التي لا تعرف الفناء . والدفاع عنه لا يكون « بتضريب اعناق الملوك » ، بل « بتضريب اعناق »

الشهوات السود في القلب التي تحجبه عن البصر والبصيرة . وصونه من الأذى لا يتم لنا باراقة دماء الغير « على جوانبه » بل باراقة دم القلب في دفع الأذى الذي يأتيه من داخل القلب لا من خارجه . فما ابعده عن ذلك الشرف « الدون كيخوتيّ » الذي عناه صاحبنا المتنبي في بيته المشهور !

ألا ليت المتنبي والذين ما برحوا يرددون بيته بالاعجاب فَهِم ويفهمون ان « الشرف الرفيع » لا يؤذى من الناس بل من قلب صاحبه . وانه لا يُغسل من ادرانه بدماء الغير بل بدم القلب الذي يأويه ويحسّه ويحيا به . وأنه لا يؤذي لانه شرفٌ صحيح وشرف رفيع .

صغار النفوس وكبارها

خير ما تمدح به أيّ انسان قولك فيه انه ذو نفس كبيرة . وشرّ ما تذم به اي انسان قولك انه ذو نفس صغيرة . ولولا كبار النفوس في الأرض لكانت الأرض جحيماً . ولولا صغار النفوس فيها لكانت نعيماً . اولئك كالنحل . وهؤلاء كالذباب . فبينا تعيش النحلة مع الأزهار ومن الأزهار ، تعيش الذبابة في الأقذار ومن الأقذار . والنحلة اذ تمتصّ من الزهرة رحيقها لا تسلبها شيئاً هي في حاجة اليه . بل تأخذ منها ما هي في غنىً عنه لتعطيها لقاءه ما لا حياة لها الاّ به – وأعني لقاح الحياة . ثم تعود النحلة فتقدّم جناها الى الناس شهداً شهياً . امّا الذبابة التي لا يطيب لها الاّ التمرّغ في الأقذار فلا تنقل الى الناس غير ما في الاقذار من سموم قتّالة . النحلة تحمل البرء للسقيم . والذبابة تحمل السقم للبريء .

وإن تسألني عن الصفات التي تميّز كبير النفس من صغيرها أجبك بانها قد تجمّعت كلها في صفة واحدة هي « النبل » . والنبل في النفس لا يأتيها من كرامة المحتد ، ولا من رفعة الجاه ، ولا سعة الثروة ، ولا من

بريق الشهرة في أيّ فرع من فروع الاجتهاد البشري . إنه عصارة اختبارات لا تحصى مرّت بها النفس على مدى حيوات عديدات .

من كان ذا نفسٍ كبيرة كان أنبل من أن يغتاب احداً من الناس أو ان ينمّ على أحد من الناس . فالغيبة والنميمة أقذار لا يستطيب التغلغل في أجوافها النتنة والانتشاء بروائحها الكريهة إلا صغار النفوس . وهؤلاء قد يكونون من أعرق العيال حسباً ، أو من أرفع الناس مركزاً ، أو من أوفرهم ثروة ً ، أو من أبعدهم شهرة في دنيا العلم والفنّ والسياسة والدين والاجتماع ، ويكون ما بينهم وبين النبل من شاسع البون مثلما بين الأرض وزحل .

ومن كان ذا نفس كبيرة كان ابعد الناس عن التبجّح . فما تبجّح إنسان بقوّة بدنيّة أو عقليّة ، أو بمال أو عقار ، أو بنسبٍ أو جاه ، أو بشهرة أو بسلطان إلا لأن في نفسه الصغيرة جوعاً الى العظمة الحقّة التي تأبى الانقياد اليه ، فيحاول ان يبتزّها من الغير ابتزازاً – ولو بقوّة حنكه ولسانه .

ومن كانت نفسه كبيرة أبت عليه أن يظهر أمام الناس على غير حقيقته . فما خجل بجهله بين العلماء ، ولا بفقره بين الأثرياء ، ولا بضعفه بين الأقوياء . وإن هو كان على شيء من العلم والثروة والقوّة ما زها بذلك على الجهلاء

والفقراء والضعفاء بل ، على العكس ، قلّل من قيمة هذه الأشياء مخافة ان يخجل منه الجاهل والفقير والضعيف . امّا الذين صغرت نفوسهم فيسيرون في الأرض بوجوهٍ ليست وجوههم ، وألسنة ليست ألسنتهم ، ولباس ليس لباسهم . فهم ابداً يُبْطنون غير ما يُظهرون ، وينطقون بغير ما يفكّرون ويشعرون ، ويُسعدهم أن ينخدع الناس بما يُظهرون عمّا يبطنون .

والذي نفسه كبيرة لا يكبر على أيّ إنسان ، ولا يذلّ لأيّ إنسان . فهو يعلم أن كرامته لا تُصان إلا اذا هو صان كرامة الغير ، وان كرامةً تقوم على مذلّة الغير لَمَذلّة في ثوب الكرامة . وهو يأبى على كرامته أن تكون تاجاً من نسيج العنكبوت تعبث به نفخة ريح عابرة قد لا تكون اكثر من كلمة طائشة ، او حركة نابية تأتيه من حسود او نمّام او عدوّ — أو من صديق حميم . ولذلك لا يقابل الكلمة الطائشة بكلمة طائشة ، ولا الحركة النابية بحركة نابية . ولا هو يحسد حاسديه ويعادي الذين يعادونه ، ويشمت بالذين يشمتون به . فنفسه أسمى من ان تنحدر الى مثل هذه الصغائر ، وأنقى من ان تتمرغ في مثل هذه الأوحال . وشرفه أرفع من ان يكون ذلك الشرف الذي لا يسلم من الأذى « حتى يراقَ على جوانبه الدّم » . امّا الذي صغرت نفسه فلا ينفكّ يحدّثك عن شرفه وعزّته وكرامته ، ولا يهنأ له عيش إلا إذا كال

لخصمه الكيل كيلين ، فردّ الشتيمة شتيمتين ، واللكمة لكمتين ، والعضة عضتين . وأسخف ما يأتيه صغار النفوس من هذا القبيل لجوؤهم الى القضاء « لتحصيل » شرفهم . حتى اذا حصلوا على حكم ولو بغرامة رمزية يدفعها لهم الذين أهانوهم شعروا بأن شرفهم المهان قد عاد اليهم طاهراً من كل وصمة وشائبة ، والتفتوا التفاتة الازدراء والشماتة الى الذي حاول النيل منه .

ان كبار النفوس إذا أعطوا فيسارهم — على حدّ قول السيد المسيح — لا تدري بما تفعله يمينهم . وإذا جاؤوا بالمعجزات تهرّبوا من تكريم الناس وتبجيلهم . وإذا أغدقت الحياة عليهم الأفراح ستروها عن عيون الحزانى . واذا كانوا شباعاً خجلوا من التحدّث عن شبعهم امام الجياع . اما صغار النفوس فإن تصدّقوا بدرهم تمنّوا لو يسمع كل من في السماء وعلى الأرض رنّته . وإن قعدوا او قاموا شاقهم أن تعرف المسكونة بأسرها كيف قعدوا وكيف قاموا ، وأين ولماذا . وإن زارتهم ساعة طرب مضوا يقرعون صنوجهم وينفخون في مزاميرهم حتى في المآتم . وان شبعوا راحوا يحدّثون الجياع عن شتى المآكل الشهيّة التي حشوا بها بطونهم .

اما اتفق لك ان رأيت والدة تلاعب طفلها فتمضي تشمّه بلهفة وتضمّه ، ولا تنفك تناجيه بأعذب ما تتقنه الامهات من عذب الكلام امثال « يا روحي . يا عويناتي .

تسلم لي . تقبرني » وما شاكلها — وذلــك في حضرة جارة حرمتها الحياة لذّة الامومة ؟! اما شعرت ، وانت تسمع تلك الأم ، ان كلماتها كانت بمثابة خناجر تغمدها في صدر جارتها العاقر ؟

أما ابتُليت بجماعة من الأثرياء يتنافسون بما أنفقه كل منهم على حاجاته الخاصّة وحاجات بيته ، ويتذاكرون ما ربحوه او خسروه في القمار ، ثم يتباهون بانهم زاروا بلاد كيت وكيت فنزلوا في اعظم فنادقها ، واكلوا في افخم مطاعمها ، وخاطوا لهم ثياباً عند اشهر خياطيها ، وابتاعوا كيت وكيت من تحفها ؟ وقد تكون انت بينهم مــن الذين لا يملكون غير الثياب التي على ابدانهم ، والذين يأكلون ولا يشبعون ، ويأوون الى بيوت خلَت إلا من كرسيّ وفراش وحصير .

أما وجدتك ولو مرّة بين زمرة من السيدات الأنيقات وقد رحن يتحدثن عن « الصنّاع » في بيوتهن حديث من يحسبن أن الله كوّنهن من عبير ونور وكوّن « الصنّاع » من رغام وسخام — وذلك على مسمع من « الصنّاع » ؟ امّا انا فقد عرفت سيداتٍ وأسياداً اذا كانت الحاجة التي يريدونها في متناول أيديهم ابوا أن يتناولوها إلا من الخادم او الخادمة !

دعاني مرّة أحد الأغنياء الى الركوب معه في سيارته الجديدة . وعندما هممت بفتح الباب انتهر سائقه لانــه لم

يبادر الى فتحه . ثم فتحه هو بيده — ولكن على مضض. وفي لمحة الطرف قفز الى الداخل فجلس الى اليمين وأجلسني الى اليسار . فكأنه عندما هممت بفتح الباب ، خاف ان اسبقه الى « مقعد الشرف » . ما أبهت للأمر في البداية . ولكنه عندما راح يحدّثني عن سيارته وعن ثمنها وعن الحسنات التي تمتاز بها على غيرها من السيارات ، ثم راح يحدجني من طرف عينه مخافة ان يلمس حذائي مخمل السيارة، او ان تبدر مني حركة تسيء الى زرّ او مسكة او ممسحة — عندئذ ندمت على قبولي دعوته وتمنّيت لو أنتشل بغتةً من السيارة بقدرة قادر أو بسحر ساحر .

انك لو بحثت عن ايّ خصام يقوم في الارض ، سواء أكان بين فردين ، أم عصبتين ، أم دولتين ، أم مجموعتين من الدول لوجدته يعود في الاساس الى صغارة في نفوس المختصمين . فما اختصم اثنان إلا لان صدر الواحد ضاق بالآخر . والصدر يضيق او يتسع على قدر ما تصغر النفس او تكبر . ففي حين ان النفس الصغيرة تضيق بالكبيرة فتناصبها العداء ، تتسع الكبيرة للصغيرة فتقابلها إما بالصفح واما باللامبالاة . لذلك كان صغار النفوس مبعث الفساد والقلق في الارض . وكان كبار النفوس ملح الارض وخميرتها ، والواحات النديّة النضرة في صحاريها .

الناجحون والراسبون

لو كان لنا ان نقيس حرارة المدارس من يوم ليوم لوجدناها تبلغ الذروة - أي درجة الغليان - في موسم الامتحانات التي تنتهي بها كل سنة دراسية . فالاساتذة اذ ذاك في حركات محمومة ينسّقون الخطط السرية للهجوم الصاعق على معشر الطلاب . والطلاب - والهف قلبي عليهم - يتجمعون ويتفرقون ، ويتهامسون ويتحرقون ، ويبثون العيون ويلاوصون ، لعلهم يعرفون قبل بدء الهجوم بأي سلاح ومن أين سيهاجمون . وهم لا يملكون القدرة على تنظيم صفوفهم للقيام بدفاع مشترك ضد الهجوم المشترك الذي يُشن عليهم . فالقانون صارم من هذا القبيل . وهو يقضي بأن يدخل الطالب حومة الامتحان صفر اليدين من كل سلاح الا من قلم ومن بعض القرطاس ما شوّهت نقاوته حروف او رسوم . والويل ثم الويل لمن تسوّل له نفسه التمرد على القانون ، فيوشوش جاره ، او يختلس نظرة من دفتره ، او يصطحب كتاباً الى جبهة القتال ، او يدخل المعمعة وعلى كم قميصه ارقام وطلاسم . فجزاؤه اذ

ذاك الطرد . والطرد يعني اقفال باب « المعرفـــة » في وجهه الى الابد .

وتبتدىء المعركة . واذا بالطلاب يتبعثر شملهم ،وتخفت اصواتهم ، ويهرب الانس من عيونهم ، وتتقنّع وجوههم بقناع من الهمّ والوجل . فلا الأكل مستطاب ، ولا الشراب مريء . ولا العبث مستحب ، ولا النوم ينقاد الى الجفون إذ ان كل طالب مكره على تقديم حساب في بضعة ايام عن كل ما درسه في خلال تسعة شهور . وهو اذ يتفقـد ذاكرته يجد ان الكثير مما درسه قد تبخّر منها ، او أن بعضه قد اختلط ببعض الى حد انه يتعذر عليه رد الأمور الى مصادرها . وإذن فلا مناص من المراجعة ، ولا بـد من جَلْد الذاكرة جلداً عنيفاً .

ويعود الطالب الى الكتاب الذي سئم منظره وعشرته في خلال الشهور التسعة ، فيختلي به في ظـــل شجرة او جدار ، او في قبوٍ او سرداب . ويصطحبه الى غرفـــة الأكل والنوم ، ويمضي يقلّب صفحاته من جديد وهو يود لو يستطيع ان يطبع كل كلمة من كلـــماته على شغاف قلبه ، او على جفون عينيه ، او ان يحفره في ذاكرتـه حفراً . ولكن الذاكرة تتبـــالد وتحرن ، وتنفر من صفحات الكتاب الى مشاهد بعيدة كل البعد عما في الكتاب فينتهرها بشدة ، ويمسك بعنانها ويجلدها بغير شفقة ، ويردها المرة تلو المرة الى الصفحة التي امام عينيه . وقـد تكون

تلك الصفحة مجموعة طلاسم كيميائية او معادلات رياضية ، او قصيدة للشنفرى ، او خطبة لشيشرون ، او صورة لامعاء ضفدع مع وصف مسهب لأجزائها وأسمائها ووظائفها او غير ذلك مما يدخل في البرامج المدرسية على اختلافها . وما ان يظن ان ذاكرته قد أسلست له قيادها حتى يراها تخزن من جديد ، او تعض اللجام فتجري على هواها لا على هواه . وينتهي بأن يكره الكتاب الذي في يده كما لو كان عدوه الألد .

ويدخل الطالب غرفة الامتحان مقرّح الاجفان من كثرة السهر ، منهنه الأعصاب من شدة الاجهاد ، وقلبه ينبض كقلب خشف تطارده عانة من الذئاب . أيخدمه الحظ فتأتي الاسئلة من النوع الذي يستطيع الجواب عليه ؟ أتسعفه الذاكرة أم تخونه ؟ أيكون من الناجحين أم من الراسبين ؟ واذا هو رسب فبأي وجه يقابل والديه وقد انفقا على تعليمه من المال ما انفقا ؟ وقد يكون ذلك المال نتيجة جهود طويلة وحرمان مضنك لوالديه واخوانه . وبأي عين ينظر الى الناجحين من رفاقه ، وبأي قلب يواجه المستقبل ؟

وتنتهي معركة الامتحانات فينجلي غبارها بعد حين عن نفر واتاهم الحظ وأسعفتهم الذاكرة فكانوا من الناجحين . وعن آخرين تنكّر لهم الحظ وخانتهم الذاكرة فكانوا من الراسبين . ويفرح الناجحون واهل الناجحين فيولمون

الولائم ويتقبلون تهانيء المهنئين . ويحزن الراسبون واهل الراسبين فيتهرّبون من الشامتين والمعزين . ويظن المغفّلون – واكثر الناس مغفّلون – ان حكماً اصدره معلم او جماعة من المعلمين على هذا الطالب او ذاك هو حكم مبرم لا يقبل الرد ولا التأويل . وان الناجحين في امتحانات المدارس هم بغير شك افضل من الراسبين .

ولكن الناجحين والراسبين لا يلبثون في النهاية ان يخوضوا المعركة الكبرى – معركة الحياة القاسية – حيث الكفاح على اشده ، وحيث يمتحنون في كل لحظة امتحاناً لا محاباة فيه ولا تزوير . واما المواد التي يُمتحنون فيها فأكثر من ان تنحصر بين دفتي كتاب ، بل بين دفات الف الف كتاب . فهي تتناول جميع ما يقولون ويفعلون ، وجميع ما يضمرون ويظهرون . والأنكى من ذلك انهم لا يبصرون لفاحصيهم وجهاً ، ولا يسمعون لهم صوتاً ، ولا يعرفون لهم مقراً . فكأنهم في كل شيء مما على الارض وفي السماء . بل كأنهم في كل زمان ومكان . لا تفوتهم شهوة ولا نيّة ، ولا يستتر عن ابصارهم فكر ولا خيال . فهم بحق فاحصو « القلوب والكلى » والعارفون « بذوات الصدور » .

وما اكثر ما نرى الناجحين في الامتحانات المدرسية يرسبون في امتحانات الحياة ! وما اكثر ما نرى الراسبين ينجحون ! ثم ما اكثر الذين ما كان لهم من الدراسة اي

نصيب ، او كان نصيبهم منها جد ضئيل ، ولكنهم ، مع ذلك ، تمكنوا من شق طريقهم الى مقدمة الركب البشري ! فليس ادعى الى الشفقة من حامل بكالوريا يطرق ابواب دواوين الدولة ناشداً وظيفة فلا يحظى بوظيفة ، وابواب رجال الاعمال طالباً عملاً فلا يجده . وهكذا ينتهي الى القنوط والخمول . وكم من دكتور في الفلسفة انزوى في معهد من معاهد التدريس الثانوية وهو راض من جهده بالكفاف ، فلا يشع منه نور فلسفة ، ولا يكاد يعرف بوجوده إلا طلابه وذووه . وليس أدعى الى الاعجاب من رجل رسب في امتحاناته المدرسية ونجح في امتحانات مدرسة الحياة ، فأصبح عَلَماً من الاعلام ، ومنارة يهتدى بنورها أو – على حد قول القدامى – سارت بذكره الركبان .

واني لأسأل – والحالة كما وصفت – : أي جدوى تجنيها البشرية على الاجمال ، والطالب على الاخص ، من الامتحانات المدرسية ؟ أليس ان هذه الامتحانات إرهاق لا طائل تحته للطالب وللمعلم بالسواء ، ثم تضليل للناس في تقديرهم لهذا الطالب او ذاك ؟

ما دامت الحياة التي يترتب على الطالب ان يحياها بعد خروجه من المدرسة هي التي تقرر في النهاية كفاءته او عدم كفاءته لخدمة نفسه وخدمة الناس ، ولمعايشتهم يوماً بعد يوم وفي كل لحظة من وجوده ، فما قيمة شهادة

تمنحها المدرسة على اساس امتحانات اجراها معلم او جماعة من المعلمين في هذه المعلومات او في تلك ! ثم ما قيمة الامتحانات النهائية التي تُكره الطالب في نهاية السنة ان يستعيد الى الذاكرة في بضعة ايام جميع ما درسه في تسعة شهور ؟ وكلنا يعلم ان الطلاب - حتى الناجحين منهم - لا يمضي على امتحانهم النهائي عام او بعض العام إلا ينسون اكثر ما استعادوه الى الذاكرة استعداداً للامتحان . أليس من الافضل لنا وللمدارس لو تلغى الامتحانات النهائية ، ولو تعطى الشهادات للطلاب بالمواد التي درسوها في خلال حياتهم المدرسية فلا يكون اذ ذاك ناجحون وراسبون ؟ اما الشهادة النهائية في اهلية هذا الطالب او ذلك فلنتركها للحياة كما نحياها يوماً بعد يوم . فهي التي حكمها الحكم الصحيح والاخير . وهي التي تمتحننا في كل طرفة عين وفي مواد لا قِبل للمدرسة بتدريسها .

وأية مدرسة تستطيع ان تعجم عود الطالب الى حد ان تعرف الغاية التي اعدته لها الحياة ، والمسالك الخفية التي هيأتها له الى تلك الغاية ، ومقدرته على الصبر والجهاد ، وعلى الافادة من كل ظرف طارئ وخبرة جديدة ، وعلى ارتياد المجهول في نفسه وتمزيق الحجب عما انطوى في كيانه من قوى عاطفية وفكرية وروحية ، وعلى مجابهة الأحداث والتغلب على العقبات ؟

وإذ ذاك فمن الغبن والحيف وهدر القوى بغير جدوى

ان نرهق الطالب بالامتحانات النهائية ، وان نجني على الناجحين والراسبين بشهادات يستحيل ان تتبين منها جميع مؤهلاتهم للبقاء والكفاح في حياة مقاييسها غير مقاييسنا ، وأحكامها غير أحكامنا . ولها الكلمة الأخيرة في من هم الناجحون ومن هم الراسبون .

صَابُونُ القُلوبُ

العتاب صابون القلوب !

هذا مثل شائع تتناقله الالسن من اقدم الازمان . وهو كغيره من الامثال يعبّر تعبيراً جميلاً عن حكمة عمليــة اكتسبتها البشرية بالاختبار الطويل على مــدى الاجيال . والحكمة فيه انّ اثنين تنافر قلباهما لسبب من الاسباب ، إذا هما اجتمعا فيما بعد وتبادلا وجهات النظر في الخلاف الذي بينهما توصلا في النهاية الى التفاهم والتقارب . فكأنهما بالعتاب قد غسلا مـا علق في قلب كلّ منهما ضدّ الآخر من ادران . فكان العتاب لقلبيهما مــا يكونه الصابون عادة للقطعة القــذرة ، واليد الوسخة ، والجرح القائح ، والمنديل المبلّل بالعرق او بالرغام .

والعتاب ، لكي يكون بحق صابون القـلوب ، لا بدّ من ان يتبطن عن نيــة صادقة في الوصول الى تفــاهم وتقارب . وإلاّ كان باروداً لا صابوناً . فما اكثر مــا يأتي العتاب توسيعاً للخرق وزيادة بلّة في الطـين . وإذا النفور البسيط ينقلب عـداوة ضارية . واذا الشقّة الضيقة

بين قلبين متنافرين تغدو هاوية سحيقة يتعذّر مدّ جسر فوقها. وهكذا ، فقولهم إن « العتاب صابون القلوب » قول يتضمّن شرطاً بل شروطاً . فلا يجوز ان يجري على إطلاقه . ولكنه يستقيم معناه على الاطلاق اذا نحن فهمنا بالعتاب محاسبة يجريها اثنان برغبة صادقة ونيّة طاهرة لتصفية ما بينهما من حساب . ثم اذا نحن توسّعنا في فهمه فجعلناه كذلك محاسبة بين الانسان ونفسه مثلما هو محاسبة بين انسانين او جماعتين من الناس .

وكيفما كان الأمر فالذي يهمّني من المثل هو اعترافه العلني بان القلوب في حاجة الى « صابون » . ومعنى ذلك أنها عرضة للاقذار على غرار ما هي الوجوه والرؤوس والايدي والارجل وباقي ظاهر البدن ، وعلى غرار ما هي الثياب التي نرتديها ، والمناديل التي نمسح بها عرقنا وننظف انوفنا ، والادوات التي نستعملها للطهي والاكل والشرب ، وغيرها وغيرها من الاشياء التي نملأ بها مساكننا والتي إذا لم نتداركها من حين الى حين بالماء والصابون ، او بالخرقة والمكنسة ، ركبتنا الآفات والحشرات ،وفاحت منّا ومن مساكننا روائح النتن والعفن .

وإنه لفي منتهى الغرابة حقاً ان ترى الناس – والمتمدنين منهم على الأخص – يتهالكون في تنظيف ابدانهم وملابسهم ومساكنهم ، ويحرصون اشدّ الحرص على ان يكون كل ما يأكلون ويشربون خالياً من الغشّ والوسخ ،

في حين لا يأبهون بالقواذير التي في قلوبهم . فكأن قلوبهم ليست منهم ، وكأن ما فيها من قذارة لا يتّصل بهم من قريب او من بعيد . فواحدهم يُصعق خزياً ويتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه اذا انت ابصرت قملةً ترعى في رأسه ، او بقّة تدرج على وسادته ، أو شعرةً في فنجان قهوة يقدمه لك ، او سواداً تحت ظفره . ولكنّه لا يبالي على الاطلاق بالثعابين والعقارب والديدان يربّيها في قلبه فتنهشه نهشاً ، ولا بالجيف المكدسة في أفكاره ، ولا بالعفن تحمله قطرات دمه الى قلبه ومن هناك توزّعه في كل ناحية من نواحي جسمه .

ويبالغ البعض في النظافة والاناقة . فيستحم أكثر من مرة في النهار ، ولا يطيق ذرة غبار على ثوبه او حذائه ، ولا يهنأ له نوم الا بين ملاءتين طهرتها الصابونة والشمس والهواء . اما انه يسير بين الناس وفي قلبه مزابل ، وفي فكره اكداس من الغبار ؛ واما انه يأوي الى فراشه النظيف بروح تلبّد فيها الوسخ فذلك لا يقلقه في النهار ولا يزعجه في الليل .

ويمرض أحدهم فيبادر الى فحص دمه ليعرف اذا كان ملوّثاً بجرثومة من الجراثيم التي تسبب طائفة من الأمراض الفتاكة كالتيفوئيد والملاريا والسلّ وفقر الدم وغيرها . حتى اذا عرف نوع الجرثومة عالجها بالدواء الذي يظن انه يقضي عليها . فالجراثيم في الدم هي اوساخ لا بدّ من

القضاء عليها اذا نحن شئنا ان يبقى الجسم سليماً . وإذن فالدم النقي هو شرط اساسي من شروط العافية وسلامة البدن . ولكنّ الطبّ الذي ادرك هذه الحقيقة ما ادرك بعد حقيقة اهمّ منها بكثير . وهي ان الدم قابل للتلوث بجراثيم اشدّ هولاً وفتكاً من الجراثيم التي تنقف منها الامراض . وهذه الجراثيم لا تبصر بالمكروسكوب ، ولا تستطاع معالجتها بايّ من العقاقير .

ما من نيّة ننويها ، او شهوة نشتهيها ، إلا يتلقفها الدم في الحال فيمشي بها الى القلب الذي يعود فيوزعها على سائر الجسد مع كل نبضة من نبضاته . وهذه النيات والافكار والشهوات من شأنها ان تترك رواسب في القلب ، بعضها يتحوّل قذارة تتزاوج وتتوالد فيها الجراثيم القتّالة . وبعضها يغدو للدم بمثابة النور للعين ، والأريج للأنف ، والشهد للسان .

ان دماً تشحنه مكراً ونفاقاً وبغضاً وجشعاً وحسداً وثأراً وما اليها يستحيل ان يكون دماً نقياً . والقلب الذي ينبض بهذا الدم قلب قذر من غير شك . وذلك القلب ما لم يُغسل بصابون الصدق والاستقامة والمحبة والرضى والتسامح والغفران كان بؤرة فساد للجسد الذي يحمله . وما اكثر ما تأتينا الامراض من دم افسدناه بنياتنا وافكارنا وشهواتنا الفاسدة . فاحرِ بنا ، قبل ان نفحص الدم لنعرف ما فيه من جراثيم خبيثة ، ان نتفقد

القلب لنعرف بماذا شحناه من خبيث الميول والنيات والافكار والشهوات . ويقيني ان الناس لو حرصوا على نظافة قلوبهم حرصهم على نظافة ابدانهم لاصبحوا في غنى عن الطب والاطباء ، وعن العقاقير والصيدليات .

اما قيل من قديم ان « السر في السكان لا في المكان » ؟ فما بالنا نهتم بالمكان وتجميله وتنظيفه ، اما السكان فنهملهم كأنهم ليسوا من الاهمية على شيء ؟ ما بالنا نغالي في العناية بالبدن الذي ليس اكثر من مسكن ، ولا نلقي بالاً الى سكانه ؟ وهل سكان البدن غير الاحاسيس والمشاعر والميول والاحلام والافكار والشهوات التي لا تنفك تتوالد في كل لحظة من وجودنا ؟ وهذه بعضها نقيّ وطاهر وجميل كالمحبة والدعة ونكران الذات والصدق والرأفة والغفران . فعلينا ان نصونه نقياً وطاهراً وجميلاً اذا نحن شئنا ان نحيا حياة نقية وطاهرة وجميلة . وبعضها قذرٌ وبشع ، كالبغض والكبرياء والرياء والقسوة والحقد . فعلينا أن نغسل قلوبنا منه .

ألا ليتنا نختتم كل يوم من ايام حياتنا بمحاسبة دقيقة نجريها مع انفسنا . فلا نستسلم للنوم الا بعد ان نغسل قلوبنا – قبل وجوهنا – من كل ما تجمّع فيها من اقذار في خلال النهار . فلا نغمض اجفاننا على كره لأيّ إنسان سواءٌ اكان مبعث ذلك الكره اختلافاً في مذهب دينيّ او سياسيّ ، او في الذوق او في المصلحة . ولا على

حسد او ضغينة لأيّ إنسان . فالكره والحسد والضغينة – مهما يكن مبعثها – أوساخ لا يليق بالقلب المؤمن بحقه في الحياة ان يغذيها بدمه . لانها في النهاية تفسده .

ألا ليتنا نختتم كل عام من اعوام عمرنا بمحاسبة شاملة عن كل ما ربحناه او خسرناه من محبة وصداقة وإيمـــان ومعرفة ومناعة روحية في خلال ذلك العام . حتى اذا ما اطلّ علينا العام الجديد استطعنا ان نستقبله بقلوب مغسولة من ادران الضغائن والمخاوف والمخازي ، ثم استطعنا ان نقول لسائر الاكوان والناس اجمعين :

كل عام وانتم بخير !

دِفاعٌ عن الظلّمة

كلنا يتغنّى بالنور . اما الظلمة فليس من يذكرها بغير السوء . فهي عنوان الجهل والضلال ، ومصدر المخاوف والمعاثر ، ومسرح المخازي والشرور ، والخصمُ الهائل الذي لا يقتحمه شراع ولا يضرب فيه بمجذاف .

في الظلمة تتعطل العين . فلا نفع منها هادياً للرِّجْل . ولا نفع من الرِّجل قائداً للجسد . فقد تقوده في رفّة جفن الى حيث هلاكها وهلاكه . اما اليد فآلة لا يُركن اليها ولا يؤمن خطرها . فقد تقبض في الظلام على عقرب أو صلّ اذ هي تفتش عن بَصَلة او عن حبل .

وفي الظلمة تختلّ ، بل تنعدم المقاييس جميعها . فلا طول ولا عرض ، ولا عمق او علو ، ولا شرق ولا غرب بل هنالك امتداد بغير بداية او نهاية . وفي هذا الامتداد اللامتناهي لا فرق بين قريب وبعيد ، وكبير وصغير ، وجميل وقبيح . مثلما لا فرق بين ابيض واحمر ، واصفر واخضر . فالكل سوادٌ حالك . بل الاصح انه بغير لون . فالظلام ، وان نعتناه بالسواد ، هو غير السواد

الذي نبصره في النهار . انه انعدام اللون انعداماً كلياً .

وعلى الاجمال ، فالظلمة بالنسبة الينا تكاد تكون مرادفة للموت . وحسبها ان تمحو معالمنا ودروبنا لتشلّ كل حركة فينا وتتركنا مقعدين عن اي عمل ومكفوفين عن اي هدف .

واما النور ، فمنذا يستطيع ان يلمّ ولو بجانب من حسناته وجمالاته ؟ فهو بلمحة الطرف يكشف لنا دنيوات من السحر والفتنة . واذا نحن نسعى سعياً محموماً لنغترف ما استطعنا من ذلك السحر وتلك الفتنة . واذا بنا في حرب ضروس مع كل ما يعترض سبيلنا الى هدف من اهدافنا . فحيثما اعترضتنا أشياء ما تزال محجبة بالظلمة دون ابصارنا ، عملنا بكل قوانا على هتك تلك الحجب كيما نكون ويكون كل ما حوالينا في نور سرمدي . واذ ذاك فلا عجب إن نحن حالفنا النور وتعشقناه . وحاربنا الظلمة ومقتناها .

اما قال الخالق في فجر الخليقة ، يوم « كانت الارض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظـلام » – ليكن نور فكان نور ؟ اما علمّنا الانبياء والمرسلون ان « من سار في النور لا يعثر » ؟ اما قالوا لنا : « ليضيء نوركم امام الناس » ؟ اما حذّرونا من الظلام وجميع الموبقات التي تتستر بالظلام ؟ واذن فالنور هو الحق – كل الحق . والجمال – كل الجمال . والظلمة هي الضلال – كل الضلال .

والبشاعة كل البشاعة .

ذلك هو الحكم الذي يصدره الناس للنور ضد الظلمة . وهو ، في نظري ، حكم جائر الى حد بعيد . فلا النور كله حسنات بغير سيئات . ولا الظلمة كلها سيئات بغير حسنات .

وأولى حسنات الظلمة وأجلّها واعظمها على الاطلاق هي انها الرّحم التي فيها تتكوّن وبها تتستّر الحياة من قبل ومن بعد ان يتلقّفها النور .

اما ترى الى الحياة ما اشدّ حرصها في الحفاظ على جرثومتها المقدسة بعيدة منتهى البعد عن النور ؟ إنها لتخشى عليها الفساد والتلف والتلاشي اذا هي تعرضت ولو لنظرة خاطفة من نظرات النور . ولذلك تغلّفها بغلاف ضمن غلاف من الظلمات . ذلك هو شأنها في دنيا الاحياء ، عاقلها واعجمها ، وكذلك في دنيا الجماد والنبات . فالنطفة التي منها الانسان والحيوان تنطلق من ظلمة دامسة في الذكر الى ظلمة دامسة في الانثى لتبقى هنالك ساعات أو اياماً أو شهوراً . فلا تبرز الى النور الا وقد استكملت شكلها واعضاءها وسائر القوى التي تمكنها من السير في ركاب النور حتى تستوفي نموّها وتبلغ الغاية من وجودها .

والبذور التي منها النبات — وما اكثر انواعها واعجب اشكالها والوانها ! — أليست هي كذلك حصوناً من الظلمات الجرثومة لحياة التي فيها ؟ فانت لو اخذت بذرة الأرز —

مثلاً – وفلقتها فكشفت قلبها للنور لقضيت حتماً على الأرزة المكفّنة فيها . لكنك اذا دفنتها في ظلمة التراب من غير ان تمزّق كفناً من اكفانها ، ثم تركتها في عهدة الشمس والبحر والهواء لبرزت بعد حين الى النور نبتة نحيفة خضراء لا تلبث بعد سنين ان تصبح شجرة عتيّة ، متشابكة الافانين ، هازئة بالاعاصير والسنين .

وانظر الى جذور النبات كيف انها لا تمتد وتنمو الا في الظلام . وما عليك ، اذا شئت إتلاف نبتة من النبات ، الا ان تكشف عن جذورها وتتركها عرضة للنور . ثم انظر الى ساق ايّ نبتة وفروعها واغصانها واوراقها واثمارها – ان تكن من المثمرات – ترأنّ هذه جميعها ليست سوى غُلُف تتغلف بها الحياة في تلك النبتة لتبقى في ظلمة دامسة وفي مأمن من النور .

بل انظر الى جسدك فهو اقرب الاجساد الحية اليك . اما ترى كيف ان الطبيعة قد لفّته من امّ رأسه حتى اخمصيه بغلاف من الجلد كيما تتيح للحياة ان تعمل عملها في سكينة الظلام ؟ فلا دماغك ولا قلبك ولا رئتاك ولا كليتاك ولا امعاؤك تستطيع ان تقوم بوظائفها إلاّ في ظلمات دامسات . اما دمك ، وهو رسول الحياة في جسدك ، فما ان تتعرض قطرة منه للنور حتى تتخثّر في الحال ثم تتجمد . فكأن بينها وبين النور عداوة ولا كالتي بين الهر والفأر .

وان انت جاوزت عالم الاحياء الى عالم الافكار

والمشاعر والتخيلات وجدت ان هذه كذلك ، من ابلها حتى أخسّها ، تولد وتنمو وتتلاقح وتتناسل في الظلام . وان هي برزت الى النور في شكل كلمة او حركة او خط او لون او غيرها من وسائل التعبير المألوفة فانما تبرز بقشورها لا اكثر . اما الجوهر الذي هو حقيقتها فيبقى محجباً بالظلام .

اما اتفق لك ان تغمض عينيك كلما حاولت ان تستعيد ذكرى هاربة ، او ان تفكر في امور ذات بال ، او ان تحلّ عقدة من العقد الزمنية والروحية التي تعترض سبيلك ؟ اليس معنى ذلك ان ذاكرتك وفكرك وخيالك وارادتك تؤثر ان تعمل عملها في العتمة ، وفي معزل عن النور ؟ ويقيني انك لو استنطقت عباقرة الفكر والخيال منذ اقدم الازمان حتى هذا الزمان ، لاجابوك بما يشبه الاجماع انهم ما حبلوا بروائعهم إلا في ظلمات السكينة او في سكينة الظلمات . فما اكثر ما يشوّه النور الاشياء ويظهرها على غير حقيقتها . فيوهمنا ابداً انها بما بدا منها لأبصارنا لا بما تحجّب عنها . وهكذا يخدعنا عن لباب الحياة بقشورها . واذ ذاك فخليق بنا ان لا نغالي في مدحه وذمّ الظلمة .

لئن دافعت عن الظلمة فلأنها ، كما اسلفت ، تلك الرحم العجيبة ، المباركة التي فيها تتجسد الحياة لتدرج منها الى النور ، ولكن في جلابيب يغمرها النور ولا يخترقها .

وانه لمن السخافة بمكان ان نحاول هتك الظلمات التي تلتفّ بها الحياة عن طريـــق البصر الذي لا يستطيع العمل إلا بالنور وفي النور . أفما من طريق لنا الى قلب الحياة غير طريق البصر ؟

اجل . هنالك طريق البصـيرة . فالبصيرة هي العين الباطنية التي لا تتكل على نور الشمس والقمر والنجوم ، فلا تعطّلها الظلمات مهما احلولكت وتكاثفت . وهي تستمد نورها من قلب الحياة المحجبة ابداً عن البصـر . والبصـيرة تكون نيّرة ومظلمة . وظلمة البصيرة هي الظلمة الجديرة بمقتنا . وهذه لن تجـد في لساني نصيراً ، ولا في قلمي مدافعاً . وانا لو خيّرت بين عين كفيفة وقلب بصـير لاختـرت القلب البصير . على أنني اوثر ان اكون نيّر العين والقلب معاً . فالعين النيّرة هي الدليل الذي لا بدّ منه للتعرف الى الحجب العجيبة التي تتحجب بها الحيـاة . والقلب النيّر هو وحده الذي يستطيع هتك تلك الحجب والوصول بنا الى النور الازلي الذي لولاه لما كان كون ولا كانت حياة .

جهنم

بعد مشاحنات قضائية دامت أكثر من سنة ، أصدرت محكمة التميز (الاستئناف) قرارها بتصديق الحكم الصادر في البداية بحق « المدعو » عدنان سمندل والقاضي « باخلاء المأجور في غضون ثلاثة أشهر » . والمدعو عدنان سمندل ما كان غير رسام تألقت شهرته حيناً ثم خبت ، و « المأجور » ما كان غير محترف ذلك الشيخ الأشيب وسكنه معاً ، وقد أفنى فيه خمساً وخمسين من عمره ، فبات يحبه الصق بجسده من جلده ، وأوثق صلة بروحه من فكره . وبات ، وقد ودع عامه الثمانين منذ شهرين ، لا يطمع في اكثر من ان يستقبل المـوت على سريره بالقرب من الموقد ، وتحت السقف وبين الجدران والرفوف والكتب واللوحات الفنية وغيرها من الاشياء المبعثرة هنا وهناك التي طالما سمعت وقع اقدامه ، وحفيف احلامه ، وشهدت اعراس قلبه ومآتمه ، وسجلت احاديثه مع نفسه ومع الذين زاروه من معجبين وفضوليين ، ومعجبات وعاشقات .

لم يبق من المهلة المعطاة للفنان العجوز الا يوم واحد ، يترتب عليه في نهايته ان ينتقل بنفسه ومقتنياته الى مقر جديد .. والا طُرح هو ومقتنياته في الشارع بقوة القانون الذي لا يرحم كبيراً او صغيراً في سبيل « العدل » ، ولا يلقى بالاً الى ما يثيره عدله في الكثير من الاحيان من عواصف نفسانية وما يخلقه من مآزق مادية قد يكون الموت الطف وقعاً منها .

وعندما سئل الشيخ عن ابطائه في التفتيش عن مسكن جديد وفي رزم أمتعته ، القى اللوم في ذلك على حر الصيف ، وعلى قلة المساكن وغلائها ، وعلى فتور همته ، وعلى ضيق ذات يده وامور كثيرة غيرها .

وهي اعذار كان يحاول ان يخفي بها حقيقة حاله عن نفسه وعن الآخرين ، فلا هو بلغ من الضعف حداً يقعده عن التفتيش . ولا عزت المساكن فلا يستطيع ان يجد مسكناً يتسع له ولأمتعته ، وبايجار معقول . ولا قلّ ما في يده الى درجة لا تمكنه من تكليف بعض الشركات رزم أمتعته ونقلها . اما الحقيقة فانه ما كان يطيق الانتقال من مسكن سلخ فيه خمساً وخمسين سنة من ماضيه ، ولا يقوى على تحمل ما يتبع ذلك من تغيير في نمط معيشته . فكان كلما حاول ان يمد يده الى اي شيء في محترفه بقصد اعداده للرزم والنقل جمدت يده كأن بها شللاً ، وسدت الغصة حلقومه ، وانقبض قلبه فكاد يغمى عليه .

واخيراً ، من بعد ليلة ما ذاق فيهـــا طعم النوم ، نهض عدنان من فراشه وقد حزم امره على فعل ما يفعله سفراء الدول عندما تقع الواقعة وتعلن الحرب ، فيمضون يحرقون جميع الأمتعة والوثائق التي قد يؤخر فرزها ورزمها ساعة الرحيل ، وقد تنفع العدو اذا هو حظى بهـــا .. ومن ثم فحرقها يخفف من متاعب نقلها .

واضرم عدنان النار في الموقد ثم راح يلقمهـا من غير ما شفقة اوراقاً ورسوماً وكتباً واشياء كانت عزيزة على قلبه فلا يسمح ان تمسها يد بأقل سوء . وقد تملكه شعور غريب اشبه ما يكون بشعور من يرى نفسه في الحـلم مثقلاً بأعباء كثيرة ، ثم يأتيه من ينزع عنـه كل اعبائـه ويعيضه عنها جناحين قويين .

وانطلق يسخو على النار بكل ما تقع عليه يداه ، فلا يعف عن لوحة ولا عن كتاب . والنار تقابـــل سخاءه بالتهليل ، وتندلع السنتها يميناً ويساراً . وتشب الى فوق في رقصة هي السحر بعينه . وهذه الرقصة تفعـل في لب عدنان فعل الحميا ... فيستزيد النار رقصاً . وتستزيـــده وقوداً ... فلا هي تشبع ولا هو يمل . وكان كلما تناول شيئاً من الاشياء بيده تأمله هنيهة ثم طوح به في الموقـد المتأجج قائلاً : « الى جهنم ! هنالك تستريح مني ، فأستريح منك » . والغريب انه كان يفعل ما يفعل ويقول مايقول ووجهه طافح بالبشر وبهجة النصر .. فكأنه القائـد المظفر

في المعركة الحاسمة .

لو ان احداً من الذين عرفوا الفنان في اوج مجده دخل عليه في تلك الساعة لما خامره اقل شك في ان الرجل خولط في عقله ، او ان نوبة من الهستيريا قد عبثت بلبه واعصابه . لقد كان يجري على غير هدى في محترفه الفسيح فيتناول الاشياء عن يمينه وعن يساره ثم يهرول بها الى الموقد حيث تلقى نهايتها الجهنمية .

ومن هذه الاشياء نفائس كان يعتز بها اعظم الاعتزاز ، ورسوم انفق الايام والليالي في صنعها ونالت الجوائز الاولى في المعارض الفنية ، ورسائل من عظماء الارض وعظيماتها كان يحرص كل الحرص على سلامتها ، ويباهي بها معارفه واصحابه . فكأنها من بعد ما نالته من كرامة لديه ، اصبحت الآن قذى في عينيه ، وعقارب في يديه ، او سلاسل في رجليه ، وهو يحاول التخلص منها باسرع الوسائل ويخشى ان تنطفيء النار في الموقد قبل ان يأتي عليها جميعاً ، او قبل ان تنتهي المهلة المعطاة له « لاخلاء المأجور» او قبل ان تتبدل حالته النفسية فتفتر حماسته وتشل الندامة يده .

لقد كان يعمل كمن يريد ان يصفي حساباته مع الماضي في لحظة واحدة ، وان يقطع الاواصر التي تربط امسه بغده .

ولعله كان يفعل ذلك تشفياً من نفسه المرهونة خمساً

وخمسين سنة بهذه الجدران وهذه الاشياء حتى باتت تحسب الحياة جحيماً بدونها . وها هو يبرهن لها انهـــا تستطيع الاستغناء عنها ، وانها احسن حالاً واخف اثقالاً اذا هي انعتقت من ربقتها .

●

قد يكون ان شيئاً من ذلك لم يخطر ببـــال عدنان عندما ثار ثورته الجنونية ... فها هي تلك الثورة تهدأ بغتة كأنها لم تكن غير زوبعة عابرة . وها هو ينتصب امـام الموقد كالصنم وقد جحظت عيناه ، ويبست يداه ، وانفرجت شفتاه عن بسمة صفراء بلهاء ، والنار ماضية في رقصتهـــا العجيبة وفي التهام الزاد الذي جادت به عليها يده . وكان آخر ما تلقفته من تلك اليد السخية رزمـــة من الاوراق ما لبثت ان انفرطت ، فبرزت منها صورة فوتوغرافيـــة لفتى وفتاة في ريق الشباب ومنتهى النضارة والجمـــال ، وقد لف الفتى عنق الفتاة بذراعه وأمال رأسها الى صدره ثم انحنى برأسه فوق رأسها انحناءة فيها من الرجولة والعطف والحنان وغبطة الحب الظافر ما ليس يوصف . وبدت الفتاة بجانبه انوثة" خلابة ، مطمئنة ، تتدفق من عينيها الذابلتين ومن تقاسيم وجهها البديع شآبيب من الحب الجامـــح والشهوة الهاصرة . وكان من غريب الاتفـاق ان وقعت الصورة في الموقد على طرفها الأسود فانتصبت في الوسط واحدقت بها ألسنة النار من جهاتها الاربع فكانت لها في خلال لحظات معدودات اطاراً من اللهيب يعجز عن وصفه

اي قلم وعن تصويره اي فنان .

•

في خلال تلك اللحظات القصيرات وقف الشيخ مشدوهاً لا يأتي بحركة ولا يكاد يتنفس . فالصورة في الاطار الناري ما كانت غير صورة حبه الاول ، وكان حباً اثيماً . فالفتاة التي بجانبه كانت زوجاً لاعز صديق له ... ولكم حاول ان يتغلب على حبه لها فغلبه حبه . ولكم حاولت ان تبقى امينة لزوجها فخانها لحمها ودمها . ولكم غرق واياها في ساعات من الشهوة المشبوبة ، وفي هذا المحترف عينه ، ذاهلين عن كل ما في الكون وقائلين واحدهما للآخر: « ان نار الحب تطهر كل اثم . »

لقد مضى على ذلك العهد اربعة عقود واكثر . فما عاد يذكره عدنان الا نادراً ، ومن غير ان يرتفع نبضه او ينخفض . ولا هو يدري اليوم اذا كانت تلك المرأة وزوجها على قيد الحياة واين . فقد انقطع ما بينه وبينها من زمان . اما الآن ، وقد راحت ألسنة النار الراقصة امام عينيه تلحس رسمه ورسم الفتاة ، فالقشعريرة تهز جسمه هزاً ، وقلبه ينكمش حتى ليكاد يتوقف عن النبض ، ورأسه يدور كأنه جرع خابية من الخمر . فقد خيل اليه — وهو الرجل الذي كان يتبجح بالحاده — ان الموقد الذي امامه هو جهنم بعينها . جهنم التي تتحدث عنها الاديان وتنذر بها الخارجين على ارادة السماء . وان النار التي تلتهم الآن صورته وصورة التي كانت عشيقته منذ اربعين عاماً

هي نار جهنم ، بل انه راح يحس تلــك الصورة من الورق كما لو كانت صورته وصورة عشيقته بلحمها ودمها ، ويحس النار تشويه وتشويها وقد ملأت رائحة الشواء منخريه ، وها هو اللهيب يقترب من ذراعـه حول عنق الفتاة ، ثم من ذقن الفتاة ، ثم من عينيها .. لا ، لا .. لن تأكل النار تينك العينين الحالمتين بالحب العنيف ، الطافحتـين بالأنوثة المتناهية والجائعتين الى ملذات الحياة ومفاتنها .

وينتفض الشيخ انتفاضة عنيفة .. ومن غـير وعي منه يمد يده الى الموقد لينتزع منه الصورة قبل ان تعبث النار بعيني الفتاة . ولكنه لا يعود من الموقد الا بحفنـة من الورق المتفحم المتجعد ، ويد قبلتها النار قبلات عنيفـة ، حراقة ... ويغمى عليه فلا يستفيق الا على جرس التليفون يدق دقات ملحة متواصلة . ولشد ما يذهــله ان يسمع صوتاً متهدجاً جداً ، وبعيداً جداً وفيه من اللوعة اهوال فيقول له اول ما يقول :

« عدنان ! انني في جحيم من الآلام ولا من منقذ سواك ، افلا تلطفت واذنت لي بزيارتك الآن ... ولو لدقيقتين ! »

فيجيب عدنان بمنتهى الدهشة والذعر :

« اما انا فقد عدت الساعة من جهنم ... ولست اريد ان ادخلها ثانية — ولو لدقيقتين ! »

وكان الصوت صوتها ...

ثائران

ليلٌ عابق بانفاس الربيع ، طافح بشعاع القمر ، مزمّل بجلابيب سكينة تتلاقى في غضونها كل اصناف القلوب — وقلوب العشاق على الأخص .

ولكن الفتى والفتاة الجالسين تحت عريش من الياسمين في حديقة الجامعة ، ما كانا يتطارحان الشوق والهيام . إنهما طالبان في السنة الرابعة من كلية الآداب ، والوجوم البادي على وجهيهما أبعد ما يكون عن وجوم عاشقين خانهما النطق او تنكر لهما الحب . لقد طال سكوتهما ، وما كان يجدي الفتاة أن تتنحنح من حين الى حين . فجليسها قد تسمّرت عيناه بالارض وتبكل فكّاه ، فما تتحرك له شفة . وأخيراً ضاق صدرها ، فأخذت الكتاب الملقى بجانبها على المقعد ، ووضعته في حضنها ، ثم ضربت عليه بكفها وقالت :

— واخيراً ؟ اما آن ان تنطق يا فؤاد ؟

فانتفض فؤاد كمن كان في سبات عميق ، وهزته بغتة من كتفه هزة عنيفة . ومن غير ان يرفع بصره عن الارض أجاب بصوت متلجلج :

- بلى . بلى . عذرك يا ثريا . لكأن لساني قطعة من الحديد في فمي .

- ولماذا ؟ أما جئت بي الى هنا لتفضي اليّ بأمر جلل ؟ فما هو ذلك الامر ؟ أم لعله من الهول بحيث لا تستطيع ان تتحدث عنه ؟

- إنه لكذلك يا ثريا . ومن ثمّ فالخجل يعقل لساني .

- الخجل ؟ وممّن ؟

- منك يا ثريا ومن ... نفسي .

- مني ؟ ! لكأنك ما عرفتني قبل اليوم ، وكأننا ما لعبنا معاً صغيرَيْن في ساحات القرية ، ولا نحن ندرس اليوم دروساً واحدة في جامعة واحدة .

- ليتنا ما كبرنا . بل ليتني وحدي ما كبرت . بل ليتني ما ولدت .

- فؤاد ! ما هذا الذي تكلمني به ؟ وأمس كنت تبني القصور والعلالي وتفرش الدنيا رياحين . ماذا حلّ بك ما بين أمس واليوم ؟

- أمس كنت إنساناً .

- واليوم ؟

- واليوم ... اليوم أنا ...

وخيّل الى ثريا ان الفتى الجالس بجانبها قد غصّ بريقه - بل بدمعه فانقبض قلبها عطفاً عليه . وشاءت ان تقول شيئاً يزيل غصته فما وجدت على الفور ما تقول . واكتفت

بأن أخذت يده في يدها وشدّت عليها بكل قوتها . ومن بعد فترة من الصمت المرهق عادت فقالت :

ـ أتبكي يا فؤاد ؟

فأجابها والغصّة تخنقه :

ـ لا . وحريّ بي ان أبكي .

ـ ما عهدتك مائع العينين والقلب .

ـ ولا عهدتني ... لصاً .

وقعت الكلمة الاخيرة على ثريا وقع الصاعقة . فما كادت تصدق أذنيها . وكانت تجزم بـأن جليسها يمزح لولا الاضطراب العميق البادي في ملامحه وفي صوته وفي كل حركة من حركاته . أيمكن ان يكون لصاً هذا الشاب الذي غالب اليتم والفقر منذ الصغر فشق طريقه من الدراسة الابتدائية الى الثانوية الى الجامعية بالصبر والحرمان والجهد المضنك وبارادة من فولاذ ؟ صحيح أن امّه ساعدته كثيراً بما كانت تنتجه من تعب يديها . إذ كانت تغسل وتخبز بالاجرة للاغنياء ، ولا تحجم عن القيام باي عمل مهما يكن خسيساً وشاقاً ، ما دام يأتيها بالقرش تنفقه على تعليم وحيدها . ولكنها اصبحت طريحة الفراش منذ عامين . وفؤاد مضطر ان يعولها ويعول نفسه ويقوم بنفقات دراسته . وها هو قد بلغ سنته الاخيرة ، وبينه وبين الشهادة الجامعية شهر وبعض الشهر . وهو متفوق في جميع دروسه . والكل من اساتذته ورفاقه يتنبأ له بمستقبل باهر . فمواهبه

لاشك في غزارتها ، واخلاقه مضرب المثل ، وعلى الاخص عزة نفسه . فما عُرف عنه يوماً ، رغم ضيق ذات يده ، انه اقترض فلساً من إنسان او طلب معونة مهما يكن نوعها ، من اي مخلوق .

لقد كانت ثريا ، وقد عرفته منذ حداثته وعرفت الكثير عن ظروفه القاسية ، اشد رفاقه اعجاباً بذكائه ، وسمو تفكيره ، ومناعة خُلقه ، ونقاوة رجولته . ولكم تحدثت اليه في شتى الامور . فكان يدهشها بقوة حجته ، وجميل بيانه ، وعمق تفكيره . وهي تذكر في ما تذكر قوله لها مرّة إنه يشكر الله لانه ولد فقيراً لا غنياً . فالفقر ليس عاراً . وإنما العار في الذل والاستكانة للفقر . والفقر دون الذل والاستكانة أعظم مدرسة في الارض . اما الغنى فشرّ ما فيه غطرسته وبهرجته . والغني المتغطرس يحفر قبره بظلفه ، وذلك بما يثيره في المحرومين من حسد وحقد وضغينة لا تلبث ان تنفجر قلاقل وثورات وحروباً .

وازدحمت الذكريات والصور في ذهن ثريا . فما استطاعت كيفما قلّبتها ، ان تستنتج من اي منها ، او من مجموعها ، ان الشاب الجالس بجانبها يمكن ان يكون يوماً من الايام لصاً ، مهما قسَت عليه الظروف ، ومهما بلغت به الحاجة . ذلك هو المستحيل بعينه . وانتهت بأن اطلقت قهقهة عالية وضربت جليسها على كتفه وقالت :

— السلام يا سيد اللصوص . بقي ان نعرف اذا كان

ما اصطدته اليوم يؤهلك لهذا اللقب الرفيع . هات برهانك .

ولكنها ، ما ان فاهت بمداعبتها تلك حتى ندمت عليها وتمنت لو تستطيع ان تستردّها . ففـؤاد راح يرتجف كالورقة وينتفض انتفاضة العصفور الذبيح . وطالت رجفته وتسارعت انفاسه حتى خشيت عليه من عارض لا تحمد عقباه . فانعقل لسانها ، وتبللت عيناها ، وما بقيت تدري ماذا تقول او ماذا تفعل .

مرّت دقائق والفتى والفتاة في صمت رهيب ، والقمر يتحجب تارة بغمامة بيضاء وطوراً يسفر كأنـه والارض يلهوان بلعبة كالتي يلعبها الصغار إذ يختبىء الواحد فيفتش عنه الآخر . وأخيراً مدّ فؤاد يده الى جيبه واخرج منها شيئاً ثم طرحه بسرعة في حضن ثريا وكأنه يطرح عقرباً او ثعباناً . وقال :

– اليك البرهان .

وتناولت ثريا ذلك الشيء وتأملته في نور القمر ، فاذا به سوار من الذهب الخالص ، البديع الصنع ، وقد رصّع بالياقوت والألماس . وظلت دقائق تتفحصه وتقلبـه ذات اليمين وذات اليسار ، فكأنها مبهورة بجماله ولمعانـه . ولكنها ، في الواقع ، كانت تفعل ما تفعله وهي في شبه انخطاف . فلا فكرها ولا بصرها كانا مركـّزين على السوار في يدها . واخيراً لبسته عـلى معصمها وبرمته برمتين ثم التفتت الى فؤاد وقالت :

– شيء بديع . وبديع جداً . إن يكن هذا صيدك يا فؤاد وانت ما تزال في اسفل سلم اللصوصية ، فكيف بك اذا بلغت أعلاه ؟ هات اخبرنا من اين وكيف ؟

ما كادت ثريا تلفظ الكلمة الاخيرة حتى وثب فؤاد الى قدميه ، وانتصب امامها كالعمود ، ثم انحنى قليلاً وراح يقذف الكلام من فمه كأنه هذيان المحموم ، ولكن بنبرات سريعة ، وبصوت خافت . فكأنه كان يخشى ان تسمعه حتى الياسمينة التي فوق رأسيهما :

– أنا رجل هالك يا ثريا – هالك الى الابد . اتفلي في وجهي . العنيني . اصفعيني . اركليني . ولكن رجوتك ان تسمعيني . ولمن عساني أعترف إن لم يكن لك ؟ انت ما افسدك الغنى . ولقد اذلني الفقر . اذلني ساعة ظننتني اذللته . عليّ للجامعة رواتب استحق دفعها . وامي ، كما تعلمين طريحة الفراش منذ عامين . وانا لست املك ثمن الدواء لها . ولا اجرة الطبيب . ولا اجرة ممرضة . انا وحدي الدواء والطبيب والممرضة . لقد تقرحت المسكينة وراح الدود يأكلها وهي حيّـة . وبتّ اشعر ان الدود الذي يرعى في لحمها يرعى في لحمي كذلك .

طار عقلي . اظلمت الدنيا في عيـني . قلت ادوس كبريائي وعزة نفسي في سبيل امي التي ما ضنّت بحياتهـا عليّ . فأقترض بعض المال . وقلت قريباً احصل عـلى شهادتي وعلى عمل يساعدني على وفاء الدين . وقلت اذهب

الى فريد صرصور . انه شاب طائش ، مبـــذر ، ورث ثروة طائلة عن ابيه . وهو يعرفني واعرفه ، ولي عليه بعض الفضل . إذ كان كثير الرسوب في امتحاناته ايام دراسته . وكنت القنه دروساً خاصة . ولولاي لما نال شهادتـــه . فريد صرصور – ألا تعرفينه يا ثريا ؟

– أعرفه .

قالت ثريا ذلك وهي تحاول ان تخفي رجفة في صوتها وفي عضلاتها . ثم اردفت بسؤال :

– وكيف كان استقباله لك ؟

– وجدته يلعب « البوكر » مع زمرة من رفاقه . فما ترك اللعب ليقابلني . بل امرني بالانتظـــار – فرحت انتظر – وعندما توقفوا قليلاً عن اللعب ليشربوا الوسكي ويأكلوا بعض الحلويات رأيته يخرج هذا السوار من جيبه ويديره على الحضور ليتأملوا جماله . وسمعته يتبجح بذوقه في انتقاء المجوهرات ، ويقول ان السوار هدية لخطيبته ، وقد دفع ثمنه خمساً وعشرين ليرة ذهبية ، وهو مزمع ان يفاجيء الليلة خطيبته به الليلة – اي الليلة البارحة – في الحفلة الراقصة في نادي « سميراميس » .

عندها قاطعت ثريا فؤاداً لتسأله في لجاجة :

– وماذا كان نصيبك منه في النهاية ؟ بمـــاذا اجابك عندما طلبت منه المال ؟

– اجابني من بعد ان تنازل وسألني عن حاجـــتي ،

ومن بعد ان وصفت له حالتي وحالة امي – اجابني بكل صفاقة : « واي بأس لو أكل الدود لحم امك وهي حية ؟ ألعلها اكثر من غسّالة ؟ » ولم يكتف بذلك حتى اضاف : « واي حاجة بابن غسالة الى شهادة جامعيــة ؟ اذهب واعمل عملاً تعيش منه . ولا تطمح الى العلوّ فوق أصلك . ذلك خير لك من الاستعطاء » .

– هكذا ، هكذا أجابك ؟ يا للوقاحة !

وانتفضت الفتاة ، وامتقع لونها ، وعضّت على شفتها السفلى ، وراحت تقلّب السوار في يدها على غير وعي منها . ولكن فؤاداً ما لاحظ شيئاً من ذلك ومضى في حديثه :

– خرجت من عنده وفي داخلي زلازل وبراكـين . ولو كان في استطاعتي ان انسف الارض والسماء بكلمة او بنفخة لفعلت . وايّ خير لي فيها وقد حبستا عني كل خير ؟ اي خير في حياة صراصيرها نسور ، ونسورهـــا جعلان ؟ ولكن ، أتموت امي مفتحة العينيـن وفي عروقي دم ؟ ؟ لا . لن تموت . سآتيها بالطبيب ، وآتيها بالدواء ، وآتيها بالمال . لقد جازفتُ بعزّة نفسي فخسرتها . انحدرت الى الحضيض ، فلأنحدر الى ما دون الحضيض . وهكذا صار فؤاد لصاً يا ثريا . وكان هـــذا السوار باكورة لصوصيته .

وتوقف فؤاد عن الكلام وهو يلهث إعياء . وما كان يجد الجرأة في نفسه ليمضي في الحديث ويخبر ثريا كيف

تلثم وتزيّا بزيّ بدوي ، وكيف كمن لفريد صرصور ليلاً وهو في طريقه الى النادي ، وكيف اوقف سيارته وشهر في وجهه مسدساً كالذي يلعب بـه الأولاد ، وكيف انتزع السوار من جيبه واطلق ساقيه للريح . وطال سكوته . فشعرت ثريا بارتباكه ولم تشأ ان يمضي في اعترافه الى ابعد من ذلك فقالت في رقة متناهية :

– يكفي . يكفي يا فؤاد . لقد فهمت كل شيء . ولا حاجة الى التفصيل . والآن ما انت فاعل بهـذا السوار يا فؤاد ! أتريدني ان اشتريه منك ؟

– لا . لا . لا . اما كفى ان تلوثت انا حتى الوثك انت كذلك ؟ لا . لا . وألف لا . إني اقشعرّ من منظره . واقشعرّ من لمسه . واقشعر من ذكر كل حركة اتيتها في سبيل الحصول عليه . وجلّ ما أرجوه منك يا ثريا ، – إذا كان ذلك لايزعجك – ان تردّي السوار لصاحبه ما دمت تعرفينه . ولك ان تخبريه بكل ما سمعته مني . لقد انزلق فؤاد من القمة إلى الهاوية . ولكنه لن يبقى في الهاوية . لتمت امّ فؤاد . ليمت فؤاد . ولكن ليموتا شريفين . لا . لن يموت فؤاد لصاً . وقـد لا يموت إلاّ ثائراً على كل ما في الأرض من نتن وظلم وفساد . بل لن يموت إلاّ ثائراً . لقد عاهدت نفسي على ذلك . والصراصير لن تملك الأرض إلى الأبد . إن لي ولامثالي نصيباً في سمنها وشهدها . ولـن نتخلى عنه للجشعاء

والمتخمين .

– هوّن عليك يا فؤاد . ما من نزول الآ بعده صعود . ودعني ابوح لك بسرٍ قد تنذهل له .

– هاتي يا ثريا . سرّك عندي سرّ .

– أتعرف لمن هذا السوار ؟

– لمن ؟

– لي . ولكنني سأعيده الليلة الى فؤاد صرصور .

– لكِ ؟ ! لك انتِ يا ثريا ؟ وكيف ذلك ؟

– انا خطيبة فؤاد صرصور .

– انت خطيبته ؟ ! واخجلي منك !

– الأصح انني كنت خطيبته الى ان سمعت منك ما سمعت .

– ثريا ، ! ليت الأرض تنشق وتبتلعني .

– بل ستبتلع الأرضُ الصراصير !

●

منذ ايام قرأت خبراً صغيراً في احدى الجرائد المحلية مفاده ان الشرطة ألقت القبض على فؤاد رمّاح وزوجه ثريّا لقيامهما بتوزيع نشرات سرّية من شأنها ان تخلّ بأمن الدولة ، وان هذين الزوجين يُعدّان في نظر المسؤولين من اشدّ العناصر « الهدامة » خطراً على البلاد ...

البنكاروليا

ندم ابو شاهين اشد الندامة بعد ان قبض الثمن ووضع يده في يد الشاري معوضاً اباه « البركة » . فقد احس كأن الجبل الذي كان واقفاً عليه راح يهوي من تحت قدميه . وكأن قلبه هبط بغتة الى اخمصيه . فغام بصره ، وضاق نفسه حتى كاد ينقطع . وعلى الأخص عندما رأى القطيع يبتعد عنه رويداً رويداً ، وقد تقدمه الشاري يحثه على السير بلغة تفهمها المعزى ، ومشى من خلفه ابن الشاري يسوقه آناً بالعصا وآونة بالحصى .

وبلغ القطيع مضيقاً بين صخور شاهقة تراكم بعضها فوق بعض . وادرك ابو شاهين انه بعد لحظات سيختفي عن ناظره الى الأبد ، لأن الذي اشتراه سيذهب به الى ديار بعيدة . وطنّ جرس « الجيمور » طنة صافية ، عالية ، والجيمور كان كراز القطيع المدلل . فانتفض ابو شاهين انتفاضة الملسوع ، وانبرى يعدو نحو القطيع ملوحاً بأوراق النقد التي قبضها ثمناً ، وصائحاً بأعلى صوته : « قف ! بالله عليك قف ! لحظة لا غير ! »

وتوقف القطيع عن السير . وعندما ادركه ابو شاهين سار تواً الى « الحيمور » . فأمسك بقرنيه ، وأغرق عينيه في عينيه ، ثم انكبّ يقبله بلهفة العاشق المتيم ، وانحدرت دموعه غزيرة على خديه ، وارتجف جسمه الجبار ، فما كنت تسمع الا نشيجه ، والا صوته المتقطع ، المتهدج : « خاطرك يا حيمور ! خاطرك يا حبيب القلب ! وهذه بوسة اخيرة لكل من رفاقك ورفيقاتك .. الله معك يا حيمور . »

اندهش الشاري لهذا المشهد ، وخيل اليه ان أبا شاهين ما عاد الا ليفسخ البيع الذي تم حسب جميع الأصول المرعية ، او ليطلب زيادة . وادرك ابو شاهين ما جال في خاطر الرجل الغريب . فطمأن باله واكد له انه ما باع يوماً عنزة او جدياً أو تيساً او شيئاً آخر ، و « عوض البركة » ، ثم عاد عن بيعه . فالرجال يربطون بكلامهم لا بقرونهم . وشرفه أعز لديه من كل مال الارض . ولكن .. هو القلب لا يباع ولا يشرى . وقد شاء قلبه ان يعبر عن حبه لهذه البهائم التي ربّاها ورافقها شهوراً وسنين ، مثلما ربى الآلاف امثالها منذ ان ورث المهنة عن والده الذي ورثها عن والده . ولقد شق عليه ان يودع المهنة بتوديعه لقطيعه . ودعا ابو شاهين ثانية وثالثة بالتوفيق للغريب ،ولبث مسمراً مكانه الى ان غاب القطيع عن بصره .

كانت الشمس تنحدر الى البحر عندما انحدر ابو شاهين في الجبل الى الضيعة ، وفي يده عصاه ، وفي كتفه جرابه ، وفي جرابه زاد يومه الذي ما ذاق منه كسرة قط ، وفي قلبه مأتم ولا كالمآتم . فقد كان كلما خطا خطوة يودع التراب والحجارة التي يقع عليها مداسه ، والصخور التي يرتمي اليها بصره ، والاشواك التي تخترق سراويله وتنخزه في جلده ، والينابيع التي طالما عب من مياهها ، والعصافير التي كان يطرب لصداحها . فهذه كلها كانت فقرات حية في العمود الفقري الذي قامت عليه دنياه في خلال اعوامه الثلاثة والسبعين . وما كان من السهل عليه ان ينسلخ عنها دون مشقة بالغة ووجع اليم .

كان على ابي شاهين ان يمر في طريقه الى الضيعة بالزريبة القائمة على رابية في سفح الجبل . وما ان بلغها حتى عاد الدمع فطفر من عينيه اذ تخيلها مهجورة من ذلك اليوم والى الابد ، وتذكر الليالي والاصبحة والامسية التي امضاها فيها وبالقرب منها ، والخيرات التي تدفقت عليه من بابها ما بين لبن وجبن وقريشة وشعر وبعر . وحانت منه التفاتة الى الطول والقدور المصففة تحت الزعرورة وبجانبها فراشه المطوي في بساط اسود . فجف حلقه من الاسى ، وارتمى بقامته المديدة على الارض وهو لا يحسب انه سيجد بعد في نفسه القدرة على القيام . ولشد ما اذهله أن يرى كلبه رابضاً على قيد خطوات

منه . فقد نسيه في موجة الحزن التي غمرته منذ ان سلم قطيعه المحبوب الى رجل غريب لقاء قبضة من الاوراق المالية المتهرئة ، وما درى ، ساعة انحدر من القمة ، انه كان يجري والكلب يجري وراءه . واستأنس ابو شاهين بمنظر كلبه الامين . فاستوى جالساً ، ومسح بكم عباءته العرق المتصبب من جبينه ، وانتزع جرابه من كتفه والقى بكل ما فيه الى الكلب قائلا :

– انت أحق مني بهذا الزاد يا نمرود . فلكم سهرت على المعزى ولكم طاردت الذئاب . ولا سهر بعد اليوم ولا مطاردة ، فهنيئاً لك ثم هنيئاً لك فلست مكرهاً مثلي ان تخرب بيتك بيدك ليحصل ابنك على ورقة يدعونها « البكنورا » .

ولكن الكلب لم يلتفت الى الزاد .. فقد كان في قلبه من الحزن مثل ما كان في قلب صاحبه .

ونهض ابو شاهين ودخل الحظيرة حيث حفن ثلاث حفنات كبار من البعر الممزوج بالتراب فوضعها في الجراب ، وعلق الجراب بكتفه ثم التفت الى كلبه وقال :

– هيا بنا يا نمرود .

ودخل ابو شاهين البيت من الباب الخلفي فوجد زوجه تنفخ في نار من فوقها قدر . ومن غير ان يحييها طرح باوراق النقد في وجهها فكاد بعضها يسقط في النار فتلتهمه لو لم تتداركه ام شاهين بحركة سريعة انفجرت على اثرها

بالتقريع والسباب :

– قطع الله رزقك ، وبليت يداك ! ألعله مال عدوك حتى تطرحه في النار ! ام لعلك سرقته ؟

– ما قطع الله رزقي ، وقطعته انت وابنك شاهين يا ست ام شاهين .

– قل لي ، من اين جئت بهذا المال كله ؟

– سرقته .

– وممن سرقته ؟

– من قلبي ، من دم قلبي . سرقته ارضاء لخاطرك وخاطر ابنك يا ست ام شاهين !

– لا رضي الله عليك . . ابعت العنزات ؟

– بعتها .

– بكم ؟

– بخمسة آلاف .

– عافاك الله ! والحمد لله ! فقد ارتحت من الشعر والبعر .

– ستبكين عليها دماً يا ست ام شاهين .

– ليتني ابكيك بجاه رب السموات !

– بل خلي دموعك للبكنورا .

– بنكاروليا يا شاطر . يا فصيح اللسان ! بنكا . رو . ليا ! كم مرة علمتك لفظها فما تعلمت ؟ لا عشت تتعلم .

– عفاريت حمر . . شياطين سود . . . لا بأس . المهم

انك ستصبحين بعد اليوم سيدة ، ويصبح ابنك افندي . فلا تخجلين بزوجك ، ولا يخجل هو بوالده يرعى المعزى في رؤوس الجبال .

– اكيد ... اكيد ! سأصبح سيدة . فأم نبهان ليست خيراً مني ، ويصبح شاهين رجلاً منظوراً بعد ان ينال البكالوريا . فخنصره يساوي الفاً من امثال ابن مراد التبن ، وستنزع عنك اللبادة والعباءة والمداس . فلا يعيرنا الناس بالشعر والبعر . ولا يخجل شاهين – وقد يغدو وزيراً يوماً ما – بأن يقال فيه انه ابن معاز . ولن تندم على المال الذي انفقته على علمه ، حتى وان لم يبقَ لك من حطام الارض غير هذا السقف الذي فوق رأسك .

– ها ان آخر قرش املكه اصبح الآن في يدك . ولم يبق غير هذا البيت والكرم . فليعطنا الله بركتك يا ست ام شاهين ، وبركة شاهين ، وبركة البكنورا...آمين...

●

انقضت خمسة اعوام على هجرة شاهين الى الديار الاميركية . وكان قبل سفره ، ومن بعد أن نال شهادته قد ظل عامين ونصف العام يفتش عن عمل فلا يجده ، ويسعى الى وظيفة في الدولة فلا يحصل عليها . ذلك لان ما حشا به دماغه من مواد البكالوريا ما كان يؤهله لعمل يرضي خيلاءه وخيلاء البكالوريا . اما الاعمال الصغيرة والحقيرة فما كان يفكر فيها لانها « لا تليق بعلمه » .

وهكذا انتهى به الامر الى الهجرة . وقد اضطر والده المسكين ، تحت ضغط منه ومن والدته ، أن يبيع الكرم ليكفلْ له نفقات سفره . وكانت الوالدة لا تنفك تعزي نفسها وزوجها بأن شاهين سيعوض عليها القرش الفاً ، وانه سيعود اليها بالغنائم وسيرفعها فوق ارفع أهل القرية . أليس انه يحمل بنكالوليا ؟ وكانت تدعو زوجها نقاقاً ونعاباً كلما ردد على سمعها القول الدارج : « لو بدها تشتي غيمت . »

وذات يوم ، اذ كان ابو شاهين وحده في البيت ينقل بصره من صورة شاهين على الحائط الى شهادة البكالوريا المعلقة على الحائط المقابل في اطارها المذهب ، اقبل عليه ساعي البريد وناوله رسالة عرف في الحال انها من وحيده في المهجر . وكان لابي شاهين بعض الالمام بالقراءة والكتابة . ففض الرسالة ، واذا فيها طلب ملحّ بارسال كمية من المال ليعود بها شاهين الى وطنه وبيته . فقد عاكسته الظروف في ديار هجرته . ولا عجب ، اما قال الشاعر من زمان : « لنا علم وللجهال مال » ؟

أطرق ابو شاهين طويلاً ، وحك رأسه وذقنه وقد تغطت بنبت طويل من الشعر الاغبر الكثيف . وتنهد تنهداً عميقاً ثم عاد ينظر الى البكالوريا في اطارها المذهب . وما هي الا دقيقة حتى عمد الى تلك الشهادة فانزلها من الحائط واخرجها من اطارها ، ثم جاء بجرابه وافرغ ما

فيه من بعر ، ثم راح يرصف ذلك البعر في صفوف متناسقة على قفا لوح الزجاج الذي كان يحفظ الشهادة من الغبار والعطب . حتى اذا انتهى من الرصف أعاد الشهادة الى الاطار ، واعاد الاطار الى الحائط . فاذا البعر فيه قد غطى الشهادة بكاملها . وجاء ابو شاهين بورقة ومظروف وقلم فكتب على الورقة بيده المرتجفة وبلغته البسيطة ما ترجمته :

« يا ولدي شاهين ! هذا كل ما ابقيته وابقته لي البكالوريا من المال ، أرسله اليك لتستعين به على العودة الى ديارك . والا فابق حيث انت . والسلام » .

وطوى الرسالة على شعرتين من شعر المعزى وعلى بعرتين سحنهما سحناً . ثم مضى بالرسالة الى دار البريد وأرسلها مضمونة . وتبعه كلبه ، وكان قد هرم مثله . وعندما عادا الى البيت منهوكين من الهم والوهن القى ابو شاهين بعصاه جانباً وانحنى فوق الكلب يمسد الشعر على رأسه ويقول :

— نمرود ! لقد اخذت بثأرك وثأري من البكالوريا !

اليوبيل الألماسيّ

رفع رئيس التحرير سماعة التلفون بيد مكهربة بالغضب . فقد كان منذ ساعتين يحاول كتابة مقال يدعم فيه مرشح حزبه في الانتخابات الجارية فما ينقاد له القلم . وكان قد مزق الورقة العاشرة عندما رن جرس التلفون للمرة العشرين . فتمنى لو كانت السماعة في يده حجراً يهوي به على رأس الذي جاء يزعجه ويشوش عليه افكاره . ولكنه عاد فتملك اعصابه عندما عرف ان الذي يكلمه ما كان غير مدير المطبعة .

– نعم . نعم . عرفتك . تكلم . امن عطل جديد في المطبعة ؟

– كلا . ولكن عندنا ما هو اسوأ من ذلك .

– أحركة بين العمال ؟

– لا شيء من ذلك . ولكن ...

– ولكن ماذا ؟ شغلي الى ما فوق اذني . ولا وقت عندي لقتل الوقت .

– عندنا عجوز تصر على مقابلتك .

- ومن هي ؟ وماذا تريد مني ؟

- اسمها « فتنة » . وتقول ان لديها اموراً شخصية تفضي بها اليك .

- فتنة ؟ اما كفانا ما عندنا من فتن ؟ اما استطعت ان تصرفها باللطف .. بالعنف ، الى الشيطان ، الى جهنم ؟

- حاولت ولكن بغير جدوى . انها طاعنة في السن ومجرد وجودها هنا يلهي العمال عن العمل .

- اطرحوها خارجاً فلا وقت عندي لاستقبال العجائز وان كن فاتنات .

- ولكن العنف قد يردي بحياتها . فهي تكاد تكون خيالاً بشرياً .

- قل لها أن تأتيني في غير هذا اليوم .

- ولكنها تلح على مقابلتك اليوم والآن .

- لا حول ولا .. جئني بها ، ولكن من بعد ان تفهمها ان وقتي لا يتسع لأكثر من خمس دقائق .

دخلت العجوز على رئيس التحرير وهي تتوكأ على عصا محدودبة كظهرها ، وفي ثياب ان نمّت عن شيء فعن الفقر والسذاجة دون المذلة والقذارة . ومن بعد ان جلست وشدت منديلها الأسود على شعرها الأشيب حيّت الرجل باحتشام وقالت بلسان يتلعثم في فم لا أثر فيه للأسنان والأضراس :

- أنا فتنة ...

ـ تشرفنا . وبماذا جاءت فتنة تفتننا ؟

ـ لا تؤاخذني . سمعي ثقيل . ارفع صوتك قليلاً .

ـ تشرفنا ... ماذا تريدين مني ؟

ـ انا فتنة . زوجة يعقوب .

ـ عليه السلام . ماذا تريد فتنة زوجة يعقوب من رئيس تحرير جريدة « النور » ؟

ـ يعقوب . يعقوب ... أما تعرفه ؟

ـ لم يحصل لي الشرف حتى الآن .

ـ اما المرحوم والدك فكان يحبه كثيراً .

ـ رحم الله الاثنين . وبعد ؟

ـ لا . الرحمة لوالدك . أما زوجي فحي من كرم الباري .

ـ اذن لا رحمه الله . وبعد ؟

ـ يعقوب في الخامسة بعد المائة . وانا في الخامسة بعد التسعين . واليوم هو يوم يوبيلنا الألماسي .

ـ وقد جئت حضرتك تدعينني الى حفلة اليوبيل ؟

ـ اليوم تمت الخمسة والسبعون عاماً لزواجنا . وهذا أمر لا يعرفه الا ثلاثة : أنا ويعقوب والله . ومنذ الآن تصبح انت رابعنا .

ـ هو شرف عظيم لي يا سيدتي ان أكون رابع جماعة ثالثهم الله عز وجل . وبعد فما شأني بيوبيل فتنة ويعقوب ؟

ـ لم اسمع . لا تؤاخذني . قاتل الله الشيخوخة .

- بل انت تسمعين ما تريدين ، ولا تسمعين مـا لا تريدين .

– لا تهزأ بي يا سيدي . فالهزء في الخمسة والتسعين عاماً خفة واستهتار وعار .

– قلت ما شأني بيوبيلكما الالماسي ؟

– انت الكل في الكل .

– انا ؟ !

– نعم . انت . فلولا يعقوب لما كنت اليوم حيث انت .

– تعنين اني مدين لزوجك بمركزي ؟

– نعم . فيعقوب كان ذراع والدك اليمنى يوم اسس الجريدة . اذ لم يكن فيها غيرهما . يعقوب لصفّ الأحرف والطباعة والتوزيع وغيرها من الاعمـال الثقيلة . ووالدك للادارة والتحرير .

– وكم بقي يعقوب في خدمة الجريدة ؟

– خمسون عاماً . وكنت اظنك تعرف ذلك . اما أخبرك المرحوم والدك عن يعقوب ؟

– لست بصاحب الجريدة يا خالـــتي . ولا انا ابن مؤسسها . انا رئيس التحرير لا اكثر . اتفهمين ؟ انا رجل مأجور كما كان يعقوب . لقد انتقلت هذه الجريدة من بعد وفاة صاحبها الى ايد كثيرة . وصاحبهـا الحالي لا يعرف يعقوب . وليس في الادارة كلها من يعـــرف يعقوب .

افهمت ؟

— لا يعرفونه ؟ ! لا يعرفون يعقوب ؟ ! لا يذكرون الخمسين عاماً التي امضاها في خدمة هذه الجريدة يطعمها من لحمه ودمه ؟ ! حقاً لقد تبدلت الازمنة وتبدل الناس ...

واخرجت العجوز من تحت ابطها الايسر خرقة ممزقة ، ولكنها نظيفة ، ومسحت بها دموعها . وسكتت . وعندها تغيرت ملامح رئيس التحرير فانبسطت اساريره وكانت متقطبة . وابتسمت عيناه وكانتا في عبوس . فانحنى نحو العجوز وقال في كثير من الرفق والعطف :

— الآن ، وقد افهمتك يا خالتي انني لست وريث مؤسس الجريدة ، وانني رئيس تحريرها لا اكثر ، فماذا ترغبين اليّ فعله في سبيلك وسبيل يعقوب ؟

— اليوبيل ياسيدي . اليوبيل . ولا شيء اكثر من ذلك .

— أتريدين معونة مالية تمكنك ويعقوب من الاحتفال بيوبيلكما الالماسي ؟

— لا . لا . شكراً ياسيدي . ولكن يعز علي جداً أن يفارق يعقوب هذه الدنيا — وقد يفارقها بين ليلة وضحاها — وأن يفنى ذكره بوفاته . كنت اود ان اكافئه في آخر أيامه بعدد من الجريدة التي وقف عليها خمسين سنة من عمره ، وفيه رسمه و كلمة طيبة عنه لمناسبة يوبيله الالماسي . ذلك خير ما يطبق عليه عينيه . يعقوب حقيق بأن يخلد .

— ولكن الخلود يا خالتي بالاعمال العظيمة . فماذا فعل يعقوب ليخلد ؟

ـ عاش مائة وخمسة اعوام . الا يكفي ؟ وهذا نادر بين الناس . وعمل في هذه الجريدة خمسين عاماً باخلاص وامانة متناهيين . وكان زوجاً صالحاً في خلال ثلاثة أرباع القرن . ورجلا ما آذى انساناً ولا تمنى الشر يوماً لانسان . نعم ، لم نرزق اولاداً . ولكننا ما حسدنا مخلوقاً على الارض . يعقوب نادر بين الرجال .

ـ وأنت نادرة بين النساء .

ـ لا تهزأ بي يا ابني . فالخمسة والتسعون عاماً ليست بالامر الذي يهزأ به .

ـ لست بهازيء يا خالتي . لقد فهمت الآن ما تطلبين .

ـ أصحيح انك فهمت ؟

ـ نعم . نعم . فهمت . فهمت .

ـ وهل تردني خائبة ؟

ـ معاذ الله . سأفعل ما أستطيعه في سبيلك وسبيل يعقوب .

ـ بارك الله فيك ياسيدي . لا تؤاخذني . ظل العجائز ثقيل . منظرهن يؤذي العين وأصواتهن تخدش الاذن .

ـ الا اذا كانت العجوز فتنة .

ـ هه . هه ... أستودعك الله . لا تؤاخذني .

ـ مرفوقة بالسلامة يا خالتي .

خرجت العجوز من حضرة رئيس التحرير . ومن بعد ان أغلقت الباب خلفها عادت وفتحته لتقول :

– ارجو ان يكون الخبر في خمسة اسطر على الاقل. وان يظهر في عدد اليوم لاقدمه هدية ليعقوب في يوبيل زواجه الالماسي.

– سيكون لك ما تريدين، ان شاء الله ...

في ذلك النهار صدر عدد «النور» وليس فيه شيء حول الانتخابات، بل فيه مقال ضاف من قلم رئيس التحرير عن مقابلته للعجوز فتنة، وعما دار بينه وبينها من حوار. وقد استرسل الكاتب في تمجيد العمل الصامت والعمال المغمورين، وفي وصف ما ينطوي عليه عمرٌ جاوز القرن من غريب الصور وعجيب المعاني. وقد جاء المقال من العذوبة والطراقة بحيث تهافت الناس عليه حتى نفدت آخر نسخة منه في ساعات معدودات.

وصدر عدد اليوم التالي وفيه صفحة كاملة حافلة بالرسوم وبالوصف للحفلة السخية التي اقامها محررو «النور» وعمالها ليعقوب وفتنة في كوخهما الحقير لمناسبة مرور خمسة وسبعين عاما على زواجهما. ومن اروع ما جاء فيها – بعد ذكريات يعقوب – وصف قرص الحلوى الكبير وقد غرست فيه خمس وسبعون شمعة، وكيف ان الزوج الطاعن اضاءها بيده. ولما حان وقت اطفائها اخذ يطفئها شمعة بعد شمعة. وينتهي الوصف الشائق بهذه العبارة المؤثرة:

«ونفخ يعقوب على الشمعة الخامسة والسبعين فانطفأت، ومعها انطفأت .. حياته.»

شهيدة الشهد

واخيراً قرّ رأي خيزران على الفرار فالانتحار ، من بعد ان ضاق صدرها بجور أمها . فهي لا تكاد تذكر في ما تذكر من سنواتها الاربع عشرة أن مرّ بها يوم لم ينلها فيه بعض الشتم وبعض اللطم من امها . وكذلك اخوها نعمان ، وكان اصغر منها بسنتين . فقد كانت الام امرأة عنيفة المزاج ، قاسية القلب ، لاذعة اللسان . وكانت لا تطيق لولديها ان يلهوا بايّ نوع من اللعب ، او ان يجلسا ولو لبضع دقائق ، بدون عمل يعملانه . فلا تنفك تحثهما على الشغل ، وتقرعهما على البطالة ، وتردد على مسامعهما مثل هذه الآيات : « اليد العاطلة ملعقة الشيطان ومقرعة النحس ، واليد العاملة مطرقة الله ومفتاح السعد . قال الله : انهض فأنهض معك . وما قال اقعد فاقعد معك . وكيف نقعد وابوكما — عتّق الله قبره — لم يترك لنا من عدّة العيش غير هذا الكوخ وغير بقرة في آخر عمرها ؟ انبقى كما نحن الى الابد ؟ لا بل نجد ونجتهد فنصبح اغنياء ، ويخدمنا الغير بدلاً من ان نخدم الغير . التعب

وسخ يغسله قليل من النوم . ومن تعب في أول حياته ارتاح في آخرها . الدقيقة فرصة للكسب .. فان فاتت بدون كسب كانت خسارة ، والقروش جيوش تحمي صاحبها من الخلف ومن الامام ، وعن اليمين وعن اليسار ، واليد التي تربح القرش خير من التي تنفقه . وان يبذل الانسان نفسه في سبيل كسب القرش لاشرف من ان يبذلها في سبيل استدانته .. »

وانه لمن الانصاف لام نعمان القول انها كانت تطبق مبادئها على نفسها بمنتهى الصرامة . فلا تستريح الا عند الاكل والنوم . وسرعان ما تفرغ في الصباح من اعمال بيتها فتمضي تغسل لهذه الجارة او تخبز لتلك من جاراتها الاوفر حظاً منها بالمال والاقل حظاً منها بالنشاط والاقتصاد والحكمة في تدبير شؤونهن . اما ولداها فما ان اصبحا قادرين على العمل ، حتى راحت تدربهما على كسب القرش بشتى الوسائل — وعلى الاخص في ايام الصيف — حيث يكثر المصطافون في القرية . فكانت ترسل خيزران في كل صباح لتبيع لبن البقرة لهم ولتقضي بعض حاجاتهم ما استطاعت الى ذلك سبيلا . واما نعمان فكانت تزوده باقصى ما يستطيع حمله من البقول والفاكهة والبيض ليبيعها هو كذلك ، للمصطافين . فتحدد له السعر الادنى وتترك الاعلى لفطنته وذكائه قائلة : « لا ترحم الذين لا يرحمونك . ولو رحم الاغنياء الفقراء لما كان في الارض فقير . »

وعندما يعود ولداها في المساء كانت ام نعمان تحاسبهما ادق الحساب عن كل قرش وكل حركة وكل كلمة . ومهما يكن نصيبهما من النجاح وافراً ما كانت تعدم سبباً — ولو تافهاً — لتوبيخهما على اشياء واشياء . فقد كان في مستطاع خيزران — مثلاً — ان تقبض خمسة قروش فوق ما قبضته لقاء تنظيفها الحمام في بيت فلانة . وكان بامكان نعمان ان يبيع دزينة البيض للسيدة كيت وكيت بزيادة عشرة قروش ... فهي سيدة اشتهرت بالتبذير ، والقرش عندها « لا قام ولا قعد » . ثم كان في مستطاع خيزران ونعمان ان يعودا الى البيت قبل عودتهما بساعة او بعض الساعة وان يجمعا ، وهما في طريقهما الى البيت ، بعض الحشائش للبقرة ، وبعض النفايات للدجاجات الخ الخ ... حقاً انهما لولدان يغلبهما الطيش ، فلا نفع منهما . ويا ويل امهما تتعب النهار والليل في سبيلهما فيذهب تعبها جزافاً . الا ليتها كانت عاقراً ... الا ليتها لم تولد ولم تلد ..

●

كان قد مر على اخيها خمسة ايام وهو يعاني آلام الحصبة ، عندما عولت خيزران على الانتحار . واتفق في صباح ذلك اليوم المشؤوم من ايام الصيف ان ناولتها امها جرة اللبن لتذهب بها على عادتها وتبيعها للمصطافين . وزودتها علاوة على ارشاداتها المعتادة ، بوصية جديدة .

« اسمعي يا خيزران ... اخوك مريض بالحصبة ، وخير دواء للحصبة هو العسل ، ولا عسل عندنا ، ولا مال

للشتري به العسل . فاسألي اينما ذهبت اليوم عن قليل من العسل واحرصي على ان لا تدفعي قرشاً واحداً . افهمي جيداً ما اقول : عسل وبالمجـــان ... افهمت ؟ إذن فانصرفي . »

فهزت خيزران برأسها بضع هزات لتؤكد لامها انها فهمت وصيتها . ثم رفعت جرة اللبن الى كتفها وخطت خطوتين برجليها الحافيتين ، وعند الثالثة هوت الى الارض صارخة صرخة ذعر لا يوصف . لقد تعثرت المسكينة بعود في طريقها . وكان من عثرتها ان افلتت جرة الصفيح من يدها فانبعجت واندلق ما كان فيها من لبن على التراب . فما لبث التراب ان امتصه .

ما درت الفتاة المنكودة الحظ كيف تيسر لها ان تعود فتقف على رجليها ثم أن تفلت من يدي امها التي أشبعتها لكماً ولطماً وركلاً وشتائم :

« ليتها الوقعة الاخيرة بجاه رب العالمين . ليتني مـــا عشت لالدك يا انحس البنات . اين عيناك ؟ ليتك بغير عينين . أين رجلاك ؟ ليتك بغير رجلين . تقعين امـــام باب بيتك وفي سهلة لا كدرة فيها ولا مدرة ؟ لا عشت لتمشي وتقعي . يا لضياع اللبن ! يا لضياع التعب ! ألعلك تأكلين خبز الوقف ؟ ام لعل الله ابتلاني بك لاكفر به وبنعمته ؟ سبحانك يا ربي ! ما هي اساءتي اليك لتعاقبني مثل هذه المعاقبة ؟ لا كنتِ ولا كانت الساعة التي ولدتك فيها .. »

لا .. ما درت خيزران كيف أفلتت من قبضة أمها، وكيف طفقت تعدو على غير هدى . واذا بهـا في واد سحيق تراكمت الصخور في جوفه وعن جانبيـه ، وانساب في قعره جدول ماؤه انقى من البلور ، وشدوه اعذب من شدو الكناري . ولا هي درت مدى المسافة التي قطعتها من بيتها الى جوف ذلك الوادي . ولكنها أحست ما يشبه الجمر في اخمصيها فانحدرت الى الجدول لتبرد مـن حرارتها بمياهه المثلوجة . ولشد مـا هالها ان ترى الدم يتدفق من جراح كثيرة فيها . ومن بعـد ان غسلت رجليها وبردت جوفها اخذت تتلفت ذات اليمـين وذات اليسار مخافة ان تكون امها قد صممت على اللحاق بها . وقد كان صوتها لا يبرح يهدر في اذنيها فيرتجف لهـديره قلبها وتنسدل غمامة على عينيها . واذ ايقنت ان مخاوفها ما كانت الا من نسج خيالها اطمأنت بعض الاطمئنان .

وحانت منها التفاتة فاذا بالقرب منهـا صخرة أعجبها شكلها فكأنها الكرسي العظيم . لقد نتأ منبسط منها فسيح فوق الوادي فكان من الكرسي بمثابة المقعد . وارتفـع القسم الآخر عمودياً فكان بمثابـة الظهر . وتسلقت الفتاة الصخرة من غير عناء يذكر ، وجلست على المنبسط الذي فيها وقد غمرته ظلال ناعمة . فأستأنست بسكينـة الوادي وظلاله ، وكادت تنسى ما بها . الا انها ما لبثت ان عاودتها ذكرى ما كان من أمرها مع امهـا . فانتفضت

وسألت نفسها بصوت عال : « والانتحار يا خيزران ، متى يكون وكيف يكون ؟ »

وراحت تفكر في شتى الاساليب التي يلجأ اليها القانطون من الحياة ، والتي سمعت الناس يتحدثون عنها فما كانت ترى غير اقربها اليها وهو السقوط من علو شاهق . وها هي الصخرة التي من تحتها . العلها من العلو بحيث لاينجو الساقط عنها من الموت ؟ أجل . انها لكذلك . وكيف يجمل بها ان تسقط ؟ أترمي بنفسها ورأسها الى فوق ام الى اسفل ؟ بل الافضل ان يكون الى اسفل .. ذلك اكفل للموت السريع .

واغمضت الفتاة عينيها فتخيلت نفسها تهوي من حالق ، فيكاد قلبها يتوقف عن النبض . ثم احست رأسها يرتطم ارتطامة فظيعة بصخرة في اسفل الوادي . فتتشعث جمجمتها ويتطاير منها المخ في كل جانب فتأتي الثعالب وبنات آوى تلحسه عن الصخور ثم ترتد الى جثتها فتمزقها بانيابها وتقشط لحمها عن عظمها ثم تزدرد اللحم وتمضي في سبيلها .

في هذه اللحظة بالذات مرت من فوق رأس خيزران حمامتان بريتان ، وحطتا على صخرة في الجانب المقابل من الوادي حيث راحتا تتناغيان وتتبادلان القبل في غنج وجذل ، فشغلها منظرهما عن صورة جثتها وقد عبثت بها الثعالب وبنات آوى . ومر في خاطرها طيف شاب لطيف في بيت من البيوت التي كانت تبيعها اللبن .

وتذكرت كيف ان ذلك الشاب اخذها مرة بين ذراعيه، وعنوة عنها استرق قبلة من شفتيها المتفتحتين لحياة الانوثة. وما كادت هذه الذكرى الحلوة تغمر قلبها حتى فوجئت بلسعة في عنقها. فانتفضت ووثبت واقفة. ثم التفتت الى الوراء فأذهلها ان ترى جيشاً من النحل في ذهاب واياب لا ينقطع لهما خيط، وان ترى ذلك الجيش يندفع من شقّ في الصخرة التي من خلفهـا ويعود اليه فأدركت بفطرتها القروية أنها امام خلية من النحل البري.

وللحال تذكرت وصية امها لها في الصباح. فنعمان في اتون من الحمى وليس يشفيه الا العسل. وها هـو العسل في متناول يديها. وهي تحب اخاها نعمان محبة ما فوقها محبة، فكيف تنتحر وتتركه تشويه الحمى؟ ولعلها تذهب ببصره أو تعطبه في عضو من اعضائه. لا، لا. اذا كان لا بد من الموت فلتمت بعد ان تحمل الى أخيها ولو قليلاً من الشهد الشافي.

وتفحصت الفتاة الشق الذي كان ينطلق منه النحل ويعود اليه فألفته يتسع لاكثر من يد كيدها. وابصرت عند مدخله قرصاً من الشهد الناصع البياض. فمدت يدها وهي تظنها قادرة ان تخلعه من مكانه برمته. ولكنها ما تمكنت الا من قبضة منه انتزعتها بسرعة وحاولت الفرار في الحال. غير ان النحل، وقد هاجه حتى الجنون اعتداؤها الوقح على مملكته، انقضّ عليها من كل صوب

مما بقيت تدري ماذا تتقيه وكيف تتخلص من وخز ابره التي كانت تنغرس في رأسها ووجهها ، وفي يديها ورجليها ، وكل ما انكشف وتستر من جسمها . فالأثواب التي كانت تستره لم تكن من الكثافة بحيث تصد عنه ابرة النحلة .

•

كان ذلك منذ تسع سنوات . وحتى اليوم لا زالت ام نعمان ، والدمع في عينيها ، تروي لجاراتها وجيرانها والمصطافين في قريتها كيف ان ابنتها خيزران التي ما خلق الله اجمل منها صورة وأرجح عقلاً ضحت بحياتها في سبيل اخيها . وذلك انها اقتحمت وحدها خلية نحل بري لتأتي اخاها المريض بالحصبة ولو بالقليل من الشهد الشافي . وكيف انها ، وقد اوسعها النحل لسعاً ، بلغت البيت في حالة التلف ، وفي يدها شيء من العسل ، فانطرحت ارضاً ، ثم مدت يدها وقالت : « هذا لنعمان » .

وكان ذلك آخر ما نطقت به .

صديقي عبد الغفار

ترتاد القرى اللبنانية بغية الارتزاق افواج من الباعة المتجولين هم في الغالب من غير اهل البلاد ، واكثرهم من ضواحي دمشق . وربّات البيوت القرويات يحسبن لهم حساباً ويخصصن قسماً ليس باليسير من ميزانيات بيوتهن لابتياع شتى الحاجات منهم . ولهن اساليب في المساومة مع اولئك الباعة أو « الدكاكين المتنقلة » هي غاية في الطرافة . فما ان يلقي البائع المكدود حقيبته الثقيلة عن ظهره ويفتحها ليعرض ما فيها حتى تتناول امّ كنعان ـ او أم منصور ـ قميصاً او منشفة او قطعة من النسيج وتجسّها باصابعها جسّ الخبير الواثق من خبرته . ثم تطرحها جانباً بازدراء ولا مبالاة كما لو كانت نفاوة تترفع عن ان تدخلها بيتها او أن تفكر في ابتياعها .

ويدرك البائع المحنّك ان تلك القطعة بعينها هي التي تفتش عنها ام كنعان . فيروح يمتدح من جودتها وكرامة نبعتها ، ويمضي في تشويقه الى ان « تتنازل » ام كنعان فتسأله عن ثمنها . وهنا يفسح المجال واسعاً امام البائع

فيصوب على خصمه مدافعه الثقيلة مبتدئاً « بالله العظيم » ، ثم بالنبي ، ثم بسائر الانبياء والاولياء ، ثم بشبابه وبعينيه وباولاده اذا كان ذا اولاد . وقلما ينسى الشمس والسماء و « التراب الطاهر » : ان الثمن هو كيت وكيت . وهو رأس المـال ـ الله وكيلك وليضربني الله بالعمى في عينيّ الاثنتين . »

ولكنّ امّ كنعان لا تلبث ان تردّ هجمته بهجمة معاكسة . فجارتها قـد ابتاعت مثل تلك القطعة بالتمام وبربع الثمن الذي يطلبه . وهي لا تريد له الخسارة . بل تريد ان تعامل « بحق الله » ـ لا اكثر ولا اقلّ . ومن ثم فهي في غنى عن هذه القطعة . ولكنها ستبتاعها شفقةً عليه وتعويضاً له عـن تعبه وعن الوقت الذي اضاعه في عرض بضاعته عليها .

وتدوم « المعركة » نصف ساعة ـ او ساعة ـ بين كرّ وفرّ ثم تنتهي بأن تأخـذ ام كنعان القميص او المنشفة او قطعة النسيج وتدفع للبائع نصف المبلغ الذي طلبه في البداية . فيأخذه راضياً شاكراً وداعياً لام كنعان بقوله : « عوّض الله عليك . ويطرح حقيبته على ظهره وينطلق يفتش عن ساحة جديدة لمعركة جديدة منادياً باعلى صوته « معنا قمصان ، كلسات ، كلسونات ، شراشف ، مناشف » ومنغماً كلماته تنغيماً يفتنّ فيه الباعة المتجولون كلّ عـلى هواه . ولكم يحـدث لي ان اكون جالساً الى مكتبي

وقلمي في يدي ارود واياه اصقاعاً نائية من مجاهل الفكر والخيال فتطرق تلك الانغـــام اذنيّ وتردّني وقلمي الى حيث الحياة البشرية تدبّ دبيبها المحموم ، المتعـثر اللاهث الأبديّ في سبيل الرغيف والقميص والمأوى .

حـدث لي مثل ذلك منذ ثلاثة اعـوام ، وكان الصوت المنادي « كلسات ، كلسونات » الخ رخيماً وعذباً الى حدّ ان تمنيت لو انه لا ينقطع . وما هي إلا دقائق حتى قيل لي ان بائعاً متجوّلاً يطلب مقابلتي . فالقيت قلمي من يدي وخرجت الى حيث كان البائع ، وانا على شبه اليقين من انه ما طلبني الا لفضّ مشكلة حسابية او نحوهـــا ، بينه وبين بعض أهل البيت ، وشدّ ما كانت دهشتي عندما ابتدرني الرجل بقوله :

« لا تؤاخذني يا استاذ لقد قطعت عليك عملك . ولو دريتَ مقدار شوقي اليك لعذرتني . هذه فرصة ترصدتهـا من زمان . وقد تمّ لي ما تمنيت . فالحمـــد لله ... » وتخضبت وجنتـــاه بالدم . والتمعت عيناه السوداوان ، وكأنه كان يريد أن يقول اكثر مما قاله بكثير فخانه جأشه ولسانه وأرتج عليه .

مددت اليه يدي مصافحاً فأخذها بكلتا يـــديه وضغط عليها ضغطاً كاد يؤلمني ، وشفتاه تختلجان كأن بها كلاماً . ولكنها لا تنطقان . وقد فتشت عن كلمة اقولها له توازي بحلاوتها ووزنها التأثر البادي على وجهه الاسمر المستدير فلم

اجد غير كلمات الترحيب المألوفة : « اهلاً وسهلاً . اهلاً وسهلاً يا اخي . تفضل واجلس » . واغلب الظن ان كلمة « يا اخي » كان لها في نفسه اكبر الفعل . فما ان سمعها حتى انبسطت اساريره وانطلق لسانه فراح يكلمني بصوته العذب ، الهادىء المطمئن :

« ما خاب ظني فيك . ويكفيني ان تخاطبني بقولك يا اخي . اذن لست في حاجة الى الاعتذار » .

« وعمّاذا تعتذر ؟ »

« عن مظهري – عن سراويلي الرثة ، وحذائي المهشم ، ويدي المشققتين ، وعن تطفلي عليك . »

« ومتى كان الناس بسراويلهم واحذيتهم ؟ ومتى كانت المحبة تطفلاً ؟ والذي يبدو لي من كلامك ومن رغبتك في مقابلتي انك تحبني . وإلا فماذا ساقك إليّ ؟ »

« نعم . نعم . ساقتني محبتي . قرأت لك اشياء . وبودي ان اقرأ كل ما كتبت وما سوف تكتب . انا اتذوق الأدب وان اكن غير متعلم . اقرأ العربية قراءة « سالكة » . وان فاتني فهم بعض المفردات والتراكيب فلا يفوتني فهم مجمل المعاني . ولو لا ان برقبتي عيالاً حاجاتهم لا تنفك تصرخ في اذنيّ لانقطعت الى الدرس والتحصيل . ولكن الحاجة لا ترحم . لذلك اتنقل في هذه الجبال واناد باعلى صوتي « كلسات ، كلسونات ، شراشف ، مناشف » . ولكنني احمد الله في كل حال .

اي . الحمد لله ربّ العالمين » .

وطال الحديث بنا على ذلك المنوال الى ان عرضت على الرجل سيجارة . فرفع اليّ عينيه الوديعتين وقال : « شكراً يا اخي . انا صائم اذا قبل الله صيامي » .

قلت : « صيامك مقبول ان شاء الله . والعيد اصبح قريباً . فارجو لك ولعيالك ان تستقبلوه وانتم في عافية وفي خير » .

« العيد ؟ وهل لامثالنا اعياد ؟ الصوم للفقراء والاعياد للأغنياء » .

« اتعني ان الأغنياء لا يصومون ؟ » .

« بل يصومون – اكثرهم يصوم . وبينهم من هم اتقياء . ولكنهم يصومون في النهار ليطلقوا الاعنة لشهواتهم النهمة في الليل . فكأنهم ما صاموا . اما نحن الذين نصوم عن الخبز والماء ونفطر على الخبز والماء فصومنا صوم وإفطارنا صوم كذلك » .

« العلك تحسد الاغنياء من هذا القبيل ؟ » .

« لا وربي الذي امرني بان اصوم هذا الشهر المبارك . فالصوم عندي متعة روحية لا تدانيها اية متعة جسدية . والصوم في القلب قبل ان يكون في البطن . اما الذين بطونهم صائمة وقلوبهم في افطار دائم من الكذب والحقد والبغض وسائر الشهوات الخسيسة فصومهم مكر وبهتان . والله لا يحب الماكرين » .

« امـــا ترى ان بين الفقراء كذلك مـن يصومون ببطونهم دون قلوبهم ؟ » .

« اجل . وانا واحد منهم . فقد دنست صومي في هذا النهار عدّة مرات وانا ابيع اشياء من عجوز كادت تخرجني عن ديني . دنسته بالكذب وبالغضب وبشهوة الدم . فقد تمنيت لو كان لي ان استل روح تلك العجوز من بـــين جنبيها . »

« الهذا الحدّ احرجتك العجوز ؟ » .

« تباً لكارنا ما امضّه كاراً . وتباً لزمان صدقه نقد زائف ومينه نقد شريف . وتباً للقمة نتبلّغ بها معجونة بالدم ومخبوزة بالرياء . كنت صادقاً في البداية مع العجوز فما صدقتني . وعندما كذبت عليها اشنع الكذب قالت : بارك الله فيـــك . الآن تكلمت بالصواب . – ونقدتني الثمن باسمـــة شاكرة . ولولا حاجتي الى دريهماتها لمـــا قبلتها ولما افسدت صومي من اجلها . ولكن الحاجة كما قلت لا ترحم » .

قلت وقد أثّر بي كلام الرجل واعترافـــه الصريح : « صدّق ان اعترافك هذا ليُصلح ما افسدتَ من صومك . ليت كلّ مَن صام عن مأكل ومشرب عرف مثلمـــا تعرف ان صومه عـــذاب بغير ثواب ما لم يقترن بصوم القلب عن الموبقات وصوم الفكر عن الشرّ . اما العيد الذي تقول إنهُ للأغنياء فلا هو للأغنياء ولا للفقراء . بل

الذين صاموا بقلوبهم وافكارهم قبـــل بطونهم وإن فرغت جيوبهم من المال وبيوتهم من لذيذ الطعام ومريء الشراب . »

كان الرجل يصغي اليّ ويداه تسويان الحبـــال حول حقيبته ، ولكن حركاته ما كانت حركات رجل فكره منصبٌ على العمل الذي بين يديه . بل كان من الجليّ ان فكره كان بعيداً عن حقيبته وعن حبالها . وبعد تردد خلته طويلاً اخذ الحبل بكلتا يديه ، وبلمحة الطرف رفـع الحقيبة الثقيلة الى ظهره قائلاً : « يا رزّاق » واوثقها جيداً الى كتفيه ووقف هنيهة ينظر اليّ ولا يتكلم ، واخيراً قال :

« ما اطيب الراحة بعد التعب ، والنوم بعد النعاس ، والتمتع بعد الحرمان ! ما اطيب الافطار بعد الصوم ! ما ابهج العيد ! » — وسكت وبقيت ساكتاً . ثم مـد اليّ يده مودّعاً وقال :

« ولكن أعياد الناس يا استاذ اصبحت اليوم اعياد عيون وانوف وبطون لا اعياد قلوب وافكار وارواح . ولو ان الناس عرفوا لاعيادهم معنى لجعلوها ايام عبادة وتأمـــل وحرمان جديد ، لا ايام هرج ومرج ، وتمتع بغير حدود . لئن حـــقّ للبطن الصائم عن الأكل والشرب ان يعيّد بالأكل والشرب فما يحقّ للقلب الصائم عن الموبقات والفكر الملجم عن الشرور ان يعيّدا برجوعهما الى الموبقات والشرور ، فعيدهـا لا يليق ان يكون بالاستمتاع بل بصوم جديد وحرمان اشد من ذي قبل . الا توافقني في ذلك ؟ قلت : بارك الله فيك . لأنت من خير من صام ومن احقّهم بالعيد . »

السِرّنوك

كان قبل الفطام طفلاً جميلاً ، يمور باللحم وبالعافية . فما تكاد تجسّ له عظماً ولا يكاد يعرف البكاء . وعلى سبيل التحبب ، ومن باب وصف الشيء بنقيضه ، لقبته امه بالسرنوك . والكلمة عامّية فصيحها الشركوك اي المهزول .

لكنه ما ان فُطم عن ثدي امه بعد سنتين من الرضاعة حتى راح ينحل ويستطيل . وقد بلغ من نحوله وطوله ان والديه اخذهما جزع شديد على حياته . الاّ ان الطب ما وجد فيه علّة من العلل المعروفة . وها هو اليوم في السنة الاخيرة من دروسه الثانوية ، وقد ودع ربيعه العشرين ، والطول والنحول فيه فرسا رهان . فلا عجب ان لبسه لقب « السرنوك » لبس الخطيئة للخاطىء . فما يكاد احد من اهل بيته وجيرانه واترابه يناديه باسمه الحقيقي الاّ شقيقته زليخه ولها من العمر سبع عشرة سنة . وهي على عكسه ، بدينة وقصيرة وبينه وبينها مودّة تفوق التي بين اخٍ واخته .

لعل اطول ما فيه بالنسبة الى سائر اعضائه هي اصابعه ورجلاه ثم انفه . فالأنف ارنبة عالية ، مستطيلة ،وحادّة حتى لتشبه حدّ السيف . وهي تنتهي بازورار طفيف الى اليسار والى اعلى ، وبمنخرين دقيقين ، ضيقين ، اذا نظرت اليهما تعجبت لصاحبهما كيف يتنفس مـلء صدره . اما اصابعه فعظام مخطوطة ومغلّفة بجلد شفاف ومسلّحة عند اطرافها باظافر طويلة تبدو عليها عناية فائقـة من حيث هندستها ونظافتها . وابرز ما في تلك الاصابع عقدها ، فهي ثخينة نافرة . وامّا رجلاه في حذاءيهما الطويلـين فقاربان صغيران يجريان على اليابسة .

يمشي بخطوات واسعة فيترنح ذات اليمين وذات اليسار والى الامام والى الوراء ، موقعاً حركات رأسه عـلى حركات بدنه وملوّحاً بذراعيه على مداهما .

ولعل اقصر ما فيه لسانه . فهو قليل الكلام الى حد بعيد . الا انه يكثر من الاشارة مستعيناً برأسه ويـديه وحاجبيه وكتفيه . وقد تظن ان به لكنة او عيّاً او كسلاً عقلياً . لا شيء من ذلك بل انك اذا اتفق لك وحملته على الكلام سمعت نطقاً صحيحاً ، ونبرة سريعـة ، ونغمة عذبة ، وابصرت بريقاً لطيفاً في عينيه الواسعتـين المكللتين باهداب طويلة مقوّسة وحاجبين دقيقين كأنهما قنطرتان . ووالدته تفسر قلة كلامه تفسيراً قد لا يكون بعيداً عـن العقل والمنطق . ففي اعتقادها ان نبهان — ذلك هو اسمه

الحقيقي - أصبح برِماً بالناس وسماجتهم لكثرة ما يهزأون بطوله وهزاله . فآثر الاحتجاب عنهم بحجاب من الصمت . ولانه واسع الصدر ، ذكي القلب ، قويّ الشكيمة تراه يأبى على نفسه ان يظهر امام احد في مظهر المستاء او المتألم او العاتب والشاكي ، بل هو يردّ كيد الناس الى نحورهم بما يبديه من قلة الاكتراث باشواك سخريانهم. حتى انه ، على سبيل النكاية ، لا يجيب من يناديه باسمه ويجيب الذين ينادونه بلقب « سرنوك » في حين انه يكره ذلك اللقب كره الفأر للهرّ . فصمته ، وفي الاصح قلة كلامه ، ضرب من الترفع عن خساسة الناس والتقزز من خشونة اذواقهم وغلاظة قلوبهم ، مثلما هو مظهر من مظاهر عزة النفس والكرامة .

ذات يوم عاد نبهان من المدرسة جرياً على عادته . ولكنه خلافاً لعادته ، ما انصرف الى تحضير دروسه في الغد ولا الى المراجعة استعداداً لامتحاناته النهائية ولم يبق بينه وبينها غير اسبوعين . وكان وقت العشاء فتناول الطعام مع اهل بيته . ثم كان وقت النوم فانطلق الى فراشه من غير ان تبدر منه اية بادرة تنمّ عن اقلّ تغيير في مجرى حياته وتفكيره .

وكان الصباح ، فقام نبهان بكل ما اعتاد القيام به من حركات في الصباح . وازفت ساعة الذهاب الى المدرسة . لكن نبهان اعتصم بزاوية من مقعد سانداً رأسه بكفه

اليمنى ومرسلاً نظره الى السقف . فاقتربت منه والدتـــه وسألته بلطف :

« الساعة بعد الثامنة يا ابني . اما تنوي الذهاب الى المدرسة اليوم ؟ » فرفع نبهان حاجبيه وكان معنى ذلك « لا » .

— « اليس عندكم دروس اليوم ؟ » فهز نبهان رأسه بالايجاب .

— « اذن ؟ » .. فكان الجواب هزتين صعوداً وهبوطاً من الكتفين .

— « اتشكو وجعاً يا ابني ؟ »

— « لا »

— « هل اهانك احد اساتذتك او رفاقك ؟ » — الجواب ابتسامة صفراوية .

— « ام لعلّ دروسك اليوم من الصعوبة بمكان ، وانت تتهرب منها ، وعهدي بك من السابقين في صفّك ؟ »

عندها انتفض نبهان وأجاب بنبرة عصبية :

« ما تعوّد السرنوك ان يتهرب من الصعاب » .

وطال الحوار على ذلك المنوال بين الأم وابنها فمـــا ظفرت منه بجواب يرضي عقلها ويبّرد قلبها . وفي النهاية اعلنت اندحارها ولطمت جبينها بكفّيها قائلة : « لك الله يا ابني . افعل ما تشاء . » وانصرفت الى اشغال بيتها .

ما كان حظ الوالد في استنطاق ولده بافضل من حظ

الوالدة . وجلّ ما استنتجه الاثنان ان ابنهما مضرب عن الدرس والمدرسة . اما زليخة فكانت اكثر لباقة واوفر حظاً من والديها اذ طلبت الى اخيها ان يرافقها في نزهة بعد العشاء ولم توجه اليه سؤالاً واحداً بشأن نفوره الفجائي من المدرسة . فما كان منه ، وقد بلغا في سيرهما مكاناً بعيداً عن مسامع الناس وابصارهم ، الا ان ابتدرها هو بسؤاله :

« اتؤمنين بالسرنوك يا زليخة ؟ »

— « أؤمن . »

— « اتؤمنين بانه يكره الشرّ ؟ »

— « أؤمن . »

— « وان قيل لك ان اخاك السرنوك يدبّر مكيدة لاغتيال انسان من الناس . »

— « لا اصدّق ؟ »

— « ما قولك في معلم ينظم احد تلاميذه قصيدة ويعرضها عليه لابداء رأيه فيردها اليه بعد حين ويأمره بتمزيقها فهي لا نظم ولا شعر . ثم لا يمضي شهران حتى يطالع ذلك التلميذ قصيدته منشورة برمتها في امهات الصحف ومهورة بامضاء معلمه وقد نالت الجائزة الاولى في مسابقة شعرية عالمية ؟ »

— « رجل خسيس من غير شك . »

— « ما قولك بذلك المعلم يهدد ذلك التلميذ بالسقوط في امتحاناته النهائية اذا هو فضح الامر وفاه بكلمة واحدة

عنه لاحد من الناس ؟ هو شاب يتيم فقير ، خجـول ، كتوم ، ما باح بسره الا لي . »

— « خساسة فوق خساسة . »

— « وذلك المعلم مدعوّ بعد ايام الى حفلة حافلة تقام على شرفه ، وفيها تُقدّم له الجائزة وهي كمية من المال لا بأس بها . ويُعلّق على صدره وسام رفيع ، فلا يخجل ولا يرفض ؟ » .

— « انه لجدير بأن يُجلد ويتفل عليه ثم يرجم » .

— « اتفقنا »

— « نبهو ! .. »

— « ما لوجهك يمتقع ولصوتك يرتجف ؟ »

— « العلك ذلك التلميذ ؟ »

— « انا ؟ ومتى كنت شاعراً ويتيماً ؟ .. »

— « اذن ما شأنك من رجل ما سرق منك شيئاً وسرق من غيرك ؟ »

— « ليته سرق آخر فلس في جيبي . ليته سرق من ذلك التلميذ قميصه . ليته سرق كل ما في المصارف من اموال ومجوهرات . »

« ولكن ؟ »

« ولكنه سرق نبضات قلب ووثبات روح . - سرق دماً متوهجاً وشهرةً ما تزال في المهد - سرق القربان المقدس المقدّم للاله الاقدس » .

– « دع صاحب القربان يقتص من سارق قربانه . اما انت فما دخلك في الأمر ؟ »

– « القربان قرباني مثلما هو قربان الله . وستكون يدي ويد الله معاً في انزال القصاص . »

– « نبهو !.. »

– « زليخه ، زليخه ! انت ادرى الناس بان اخاك السرنوك ما نصّب نفسه يوماً من الايام دياناً للناس . »

– « اما اليوم ؟ »

– « اما اليوم ... فالسرنوك آلة في يد الديان . »

– « واي الناس ليس آلة في يد الديّان ؟ »

– « وموت بعض الناس خير من حياتهم . »

– « نبهان ! – اخي – حبيب قلبي ! رجوتك الا ... »

« اتفقنا . اتفقنا يا زليخه » – وغيّر السرنوك مجرى الحديث واوسع خطاه ليقطع على شقيقته طريق العودة اليه .

●

غصّت قاعة الاحتفال بالمدعوين وبينهم الوزير والنائب والوجيه والتاجر والشاعر والكاتب والصحفي . وقد رأت لجنة الحفلة ، زيادة في تكريم المحتفى به ، ان تدعو زملاءه الاساتذة في المدرسة التي يدرّس فيها وصفّ المنتهين من تلاميذه ، وان تكلف المنتهين اختيار واحد منهم لالقاء كلمة مناسبة في استاذهم العظيم . فاختاروا السرنوك بالحاح منه .

تكلم مدير الحفلة ثم وزير المعارف الذي علّق على صدر المحتفى به اسمى وسام للمعارف . وتلاه احد الشعراء ثم نقيب الصحافة ، ولم يبقَ غير السرنوك وغير رئيس لجنة المحكمين الموكول اليه تقديم الجائزة ، ثم كلمة الختام للمحتفى به . وأطنب الخطباء ابعد الاطناب في مدح عبقرية المحتفى به واخلاقه . وكانت النبرة الغالبة في كلامهم نبرة الاعجاب بتواضع ذلك الشاعر الفذّ الذي بلغ الستين من عمره وما نشر على الناس قصيدة واحدة من شعره قبل التي ربحت الجائزة . حتى صح فيه القول : سكت دهراً ونطق دراً .

وجاء دور السرنوك فاعتلى المنبر بقامته المديدة الهزيلة متمايلاً يميناً ويساراً ، وادار طرفه في الحضور وقال بصوت جهوري :

« أبلغُ الشعور ما استعصى على الشّعر . واكرم الشعراء من ضنّ بشعره على الناس . واعظم الناس من ترفع عن مديح الناس . تلك هي المثالة النبيلة التي ما انفك استاذنا المحبوب يرددها على مسامعنا الكرة بعد الكرّة . فلا عجب ان يكون ابلغ الشعراء واكرمهم من غير ان ينظم شعراً . مثلما لا عجب ان يكون اعظم الناس لانه ابعدهم عن الغرور وحب المجد والظهور .

« وها انا اعطيكم مثالاً صغيراً من عظمة استاذنا ونبل روحه . وابوح بسرّ ما باح به لغيري ، واثقاً من مغفرته وحلمه . فهو غفور حليم !

« نظم احدنا قصيدة وعرضها عليه . فما هشّ لها ولا بش . بل نصح لناظمها بان يمزّقها وان يقلع عن معاقرة القوافي . وتلك القصيدة بعينها هي التي تحتفون بها اليوم . والذي نظمها رفيق من رفاقنا وهو الآن بيننا ، وكلنا شهود له . انقول إن استاذنا العظيم سرقها ؟ معاذ الله . ولكنه من فرط اعجابه بها خشي عليها من الضياع مثلما خشي على ناظمها من الغرور الباكر وعلى عبقريته من ان تطمرها رغوة العيش وغبار معمعة الحياة . لذلك تبنّاها ومهّد لها ولصاحبها هذا التمهيد الجميل الذي تشهدون . وهو سيعلن بنفسه وبفصاحته التي لا تجارى اسم الناظم وسيتنازل له عن الجائزة وذلك لعمري هو النبل كل النبل . عاش استاذنا النبيل ! »

•

بقي الناس اياماً يتحدثون عن ذلك الاحتفال ، وعن بطولة السرنوك ، وعن الشاعر الفتي الذي تألّق نجمه عالياً في سماء الشعر . اما السرنوك ، وامّا رفيقه الشاعر فكانا جد فخورين بانهما رسبا في امتحاناتها النهائية .

ويذوب الجليد

من بعد ان اطمأن ضرغام الى ان زوجه وصغاره الثلاثة قد استسلموا جميعهم للنوم ، نهض الى الباب فأوصده بالمزلاج من الداخل ، ثم اطفأ السراج ، وأوى الى فراشه وصلى صلاته ، ونام . وصلاة ضرغام آية في الايجاز :
« يا رب أشبعنا من خيرك ولا تحوجنا الى أحد غيرك . »

ولكنه في هذه الليلة بالذات - وقد كانت ليلة رأس السنة - أضاف الى جملته المعتادة دعاء بأن يجعل الله السنة الجديدة سنة خير وسلام له ولعائلته والناس اجمعين . ولأنه عامل بسيط عدته زنده ومعوله ، فالخير الذي كان يرجوه لنفسه ولعائلته هو أن يبقى له زنده ومعوله ، ريثما يكبر صغاره فيجهز كلًا منهم بمعول كمعوله ليكونوا عوناً لانفسهم ولوالديهم عندما تدركهما الشيخوخة .

وشيء آخر كان يرجوه ضرغام من اعماق قلبه ، ولكنه يئس من الحصول عليه . فما بقي يزعج ربه بالصلاة من أجله . ذلك أن زوجه التي كانت مبعث الحسد له من جميع جيرانه لحسن صورتها ، ولما فطرت عليه من

الذكاء والاخلاص والمقدرة على تصريف شؤون البيت أصيبت بضرب غريب من المس بعد وفاة بكرها في مثل هذه الليلة منذ عامين . فقد يتفق لها أن تصمت أياماً متوالية من غير ان تنقطع عن العمل . وقد تنقطع عن العمل أياماً ولا تنفك تخاطب أشخاصاً لا وجود لهم الا في مخيلتها ، أو تعاتب الله ومخلوقاته عتاباً مراً . واحياناً تعود سيرتها الاولى فكأنها لا فقدت بكرها ، ولا اكتوى قلبها ولو بجمرة واحدة من جمرات الحزن .

ما لبث الدفء ان دب في جسم ضرغام وفراشه ، فتخدرت اعصابه وتباطأت ثم تلاشت افكاره ، واستغرق في سبات عميق . وكان آخر ما جال في خاطره انه لا يستطيع كباقي الناس ان يحمل الى اولاده الهدايا في رأس السنة . ولكنه سيأتيهم بقليل من اللحم في الغد . « الاعياد للاغنياء .. اما نحن .. » ولم يمهله النوم ليكمل جملته .

وقبيل منتصف الليل افاق ضرغام من نومه شاعراً كأن رجليه قطعتان من جليد . ألهذا الحد اشتدت وطأة الصقيع في خلال ساعات معدودات ؟ ولشد ما اذهله عندما استوى جالساً في فراشه والتفت نحو الباب ، ان يرى شقة واسعة من السماء تتغامز فيها النجوم وكأنها تتغامز عليه ، ثم ان يسمع الريح تصفر في جوانب الكوخ ، وان يبصر اللحاف الذي فوق بدنه يرتفض من

شدة الريح . والباب في كوخ ضرغام كان المنفذ الوحيد للنور والهواء . فمن اين النجـــوم ، ومن اين الريح ؟ العله نسيه مفتوحاً ؟ ولكنه يذكر جيداً انه اوصده من الداخل قبل ان ينام . العل زوجه خرجت في حاجة من الحاجات وسها عن بالها ان تغلقه ؟

– زهرا !.. زهرا !..

ولكن زهراء لا تجيب ...

عندئذ انطلق ضرغام الى الباب فأوصده ، ثم الى السراج فأوقده ، وتفقد الصغار فاذا بهم يغطون غطيط الابرار غير مبالين بالصقيع يلسع ارجلهم العارية وقد نسفت الريـــح عنها اللحاف . اما فراش الوالدة الممدود بجانبهم عـــلى الحصير فلم يكن فيه احد .

رد ضرغام اللحاف على صغاره ووقف هنيهة لا يدري ماذا يفكر او ماذا يقول أو يفعل . ايكون ان زهراء انطلقت الى المقبرة حيث يرقد بكرها الحبيب ؟.. ولكنها ما فعلت ذلك في العام الماضي ولا في الذي قبله . ومن ثم فهو يعرف شديد خوفها من السير وحدها في الظلام . والليل دامس ، والبرد قارس ، والمقبرة في مكان قفر بعيد ، وليس في الكوخ الضيق زاوية تستطيع زهراء ان تختبىء فيها .

اذن اين هي ؟ العل جنية اختطفتها ؟.. قد يكون .. قد يكون .. ولكن لا مناص من التفتيش على كل حال .

وحمل ضرغام السراج وشاء ان يخرج به من الكوخ . الا انه ما ان فتح الباب حتى اطفأت الريح السراج . فوضعه ارضاً ومشى غير واثق من خطواته ولا من اتجاهاته . ونادى « زهراء » ثلاثاً فما سمع لندائه جواباً .

وبغتة لمح لهيباً يتصاعد من اسفل التل الذي قام عليه كوخه . وكان يعلم ان ليس هنالك من مساكن بشرية . بل هنالك خزان كبير للماء ، اقامه احد الملاك لري بساتينه في الصيف . وهذا الخزان يتجمد الماء فيه شتاء فيقصده الفتيان والفتيات للتزلج على جليده . ولكن في النهار لا في الليل . العلهم اختاروا ان يستقبلوا السنة الجديدة وهم يتزلجون على ضوء المشاعل ؟.. لله من عبث الشباب ! وهنيئاً لهم صفو بالهم وهرجهم ومرحهم !

•

وتعالى اللهيب حتى كاد يضيء لضرغام طريقه . فما شعر الا ورجلاه تقودانه في اتجاه اللهيب . واخيراً ادرك الخزان ، واذا النار التي ابصر لهيبها من بعيد تضطرم على سطح الماء المتجمد فيه ، واذا امرأة منفوشة الشعر ، محمومة الحركات تغذي النار من كومة حطب قريبة . لقد خالها ضرغام لاول وهلة جنية ، ولكنه ما لبث ان عرف فيها زوجه . فصعق وتسمر في مكانه واعترته رجفة من ام رأسه حتى اخمصيه . واخيراً ، من بعد ان لبسته روحه ، صاح بصوت فيه الكثير من الدهشة والهلع :

– زهرا .. ما هذا الذي تعملين ؟

فاجابته زهراء ببرودة متناهية ، وهي تغدو وتروح بين كومة الحطب والنار ، وكأن وجوده هناك في مثل تلك الساعة كان امراً طبيعياً للغاية لا يستحق الدهشة ولا الاستغراب :

– انني ادفىء قلب الله . لعل العام الجديد يولد وليس في قلبه جليد !

– ومن ادراك ان في قلبه جليداً ؟

– الجليد الذي في قلبي ، وفي قلب الارض ، من حوالي ، وفي قلب السماء من فوقي . اما ترى الى الارض كيف تلحفت بالجليد ؟ والى السماء كيف تتنفس جليداً ؟. التراب ، والصخر ، والنهر ، والشجر ، والنجوم – كلها جليد . والناس كلهم جليد . وكيف يولد العام الجديد دافىء القلب في عالم كله جليد ؟ . لهفي عليه . انه لفي حاجة الى النار .

– ولكن نارك لن تذيب الجليد في الارض والسماء وفي قلوب الناس .

– بلى . بلى . مني حطبة . ومنك حطبة . ومن غيرنا حطبة . وهكذا تدفأ الارض والسماء ويدفأ الناس . انا لا اطيق الجليد . لا اطيق العيش في دنيا يدها جليد ، وعينها جليد ، ولهاتها جليد ، وقلبها جليد . قليلاً من النار ، مني عود . ومنك عود . ومن كل انسان عود..

ويذوب الجليد ...

– ولكنه لا يذوب حتى يعود فيتجمد .

– يعود فيتجمد فنعود فنضرم النار من جديد . مني قشة ومنك قشة . ومن غيرنا قشة . حتى القشة اذا التهبت اذابت الجليد . لنلتهب كلنا – انا وانت وجميع من في الارض والسماء . ليلتهب الكون بأسره .

– وفي النهاية يحترق ويترمد .

– الرماد خير من الجليد . وفي الرماد الدافيء يعود فيولد عالم دافيء . وعالم دافيء تكون قلوب بنيه دافئة . واناس قلوبهم دافئة أعوامهم ابداً دافئة .

– ما دخل الاعوام في القلوب ؟

– الاعوام تولد في القلوب وتدفن في القلوب . والذين اجلدت قلوبهم بالبغض والشح والنفاق والجشع والظلم اجلدت اعوامهم بالحرب والجوع والعفن والحرمان والموت . فلا خير لهم في ان يدعو واحدهم للآخر : « كل عام وانتم بخير » . والذين دفئت قلوبهم بالمحبة والجود والصدق والرضى والعدل دفئت أعوامهم بالسلام والبحبوحة والعطر والعافية والطمأنينة فكانوا في خير وان لم يقل لهم احد : « كل عام وانتم بخير » .

– زهرا ! زهرا ! عودي الى رشدك . عودي الى بيتك . ما هذا الذي تهذين به ؟ . ومن نحن لندفيء الكون ونصلح الزمان ؟ . يا لضياع الحطب تحرقينه فوق

هذا الجليد . وانت لو احرقته في بيتك لأدفأت نفسك وصغارك على الأقل . هيا الى البيت . هيا معي .

– بل تعال انت وناولني قليلاً من الحطب . قليلاً من الحطب ويدفأ الكون – ويدفأ العام الذي يولد – ويدفأ صغارنا كذلك – ويدفأ حتى بكرنا في قبره . منك حطبة . ومني حطبة . تعال . تعال . اكراماً لبكرنا في تربته . لهف قلبي عليه .. لقد عاش عمره القصير محروماً من لذائذ الحياة . وهو ينام الآن في حفرة تلحفت بالجليد . حرام . حرام ...

وفاضت مقلتا زهراء بالدمع ، واخذت ترتجف كالورقة . ثم هوت بغتة الى سطح الخزان المتجمد بالقرب من النار . فوثب ضرغام اليها في الحال واجتذبها بعيداً عن النار مخافة ان تلتهب ثيابها ، فتذهب هي كذلك ضحية محاولتها الخرقاء بأن تدفىء قلب الكون . وعندما شعر انها عادت فملكت اعصابها ساعدها على النهوض . وما كاد يبلغ بها حافة الخزان حتى أخذ الجليد يتشقق من حول النار التي عليه فأبتلعتها المياه التي تحت الجليد ولم يبق منها غير عمود من الدخان المتصاعد في الفضاء . فشكر ضرغام ربه على نجاته العجيبة ونجاة امرأته المسكينة من الكارثة وقال في قلبه ان لصغاره لا شك اجراً عند الله .

●

وسار ضرغام بزوجه نحو الكوخ وهو لا ينبس بكلمة ،

وهي تتوكأ على ساعده وتتنهد من حين الى حين تنهداً عميقاً ولكنها لا تتكلم . وكانت كلما انزلقت رجلها على التراب المتجمد ، او تعثرت بحجر او بغصن شجرة تتوقف قليلاً عن السير وترفع بصرها الى النجـــوم المصقوعة في اجوائهـــا البعيدة وتتمتم كلمات غير مفهومـة ، ثم تمضي في المشي غير آبهة بالظلمة ولا بوعورة الطريق .

وعندما اقترب الزوجان من الكوخ سمعا رنين نواقيس بعيدة ، ثم هدير مدافع وجلبـــة زمارات وصفارات . فقالت زهراء لضرغام :

– أين نحن ؟

فأجابها ضرغام :

– نحن في طريقنا الى البيت .

– وما هذه النواقيس والمدافع ؟

– هي البشارة بولادة العام الجديد .

– العام الجديد ؟ .. ولكنني أبصرتـه يغرق في بحر من الجليد . او انني هكذا حلمت .

فقال ضرغام هازئاً :

– مني قشة . ومنك قشة . ومن كل انسان قشة – ويذوب الجليد .

– اي . اي . هكذا كلمني الملاك في المنام . مني قشة . ومنك قشة ... اي . اي . ويذوب الجليـد . وهل اشتريت احذية جديدة للأولاد في رأس السنة ؟

– لست املك ثمن احذية جديدة . واملك ثمن قليل من اللحم والحلوى آتيهم به في الغد .

– اي . اي . ضرغام . قليل من اللحم . قليل من الحلوى . قليل من الرحمة والغفران – ويذوب الجليد في كل مكان .

فهرست

صفحة

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
كان ما كان
جبران خليل جبران
زاد المعاد
همس الجفون
البيادر
كَرْمٌ على درب
صوت العالَم
الأوثان
لقاء
النور والديجور
مذكرات الارقش
في مهبّ الريح
كتاب مرداد

بالانكليزية

The Book of Mirdad.
Kahlil Gibran — a Biography.
Memoirs of a Vagrant Soul.

X3
7

٢١٥/١١/٥٤/٢٠٠٠

عن المؤلف والكتاب

• اذا كان بين ادباء العرب المعاصرين نفر يمكن ان نطلق عليهم لفظ « الادباء العالميين » فليس من ريب في ان ميخائيل نعيمه في طليعة هؤلاء النفر . لقد نقلت كتبه إلى كثير من اللغات الحية ، وتنافست في نشرها كبريات الدور في الولايات المتحدة وبريطانية والهند .

• وليس بين قراء العربية من يجهل نعيمه ، او لم يقرأ له بعض ما ألّف في النقد (الغربال ، المراحل) والسيرة (جبران خليل جبران) والقصة (كان ما كان ، مذكرات الأرقش) والمقالة (البيادر ، الاوثان) .

• وعلى الرغم من ان نعيمه كان في جميع هذه الفنون رائداً هادياً في أدبنا الحديث فانه ما يزال الى اليوم يعطي كأحسن ما يعطيه الاديب الموهوب الذي يتسم أدبه بالأصالة والشخصية والطابع الانساني .



• وما هذه المجموعة التي تقدمها اليوم الى قراء العربية ، والتي تلتقي فيها الفلسفة والقصة والاجتماع الا دليل آخر على أن ادب نعيمه ما يزال نضراً نابضاً بالحياة .